كوكتيل ٢٠٠٠

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

روايات مصرية للجيب

عملية الأستاذ

وقصص أخرى

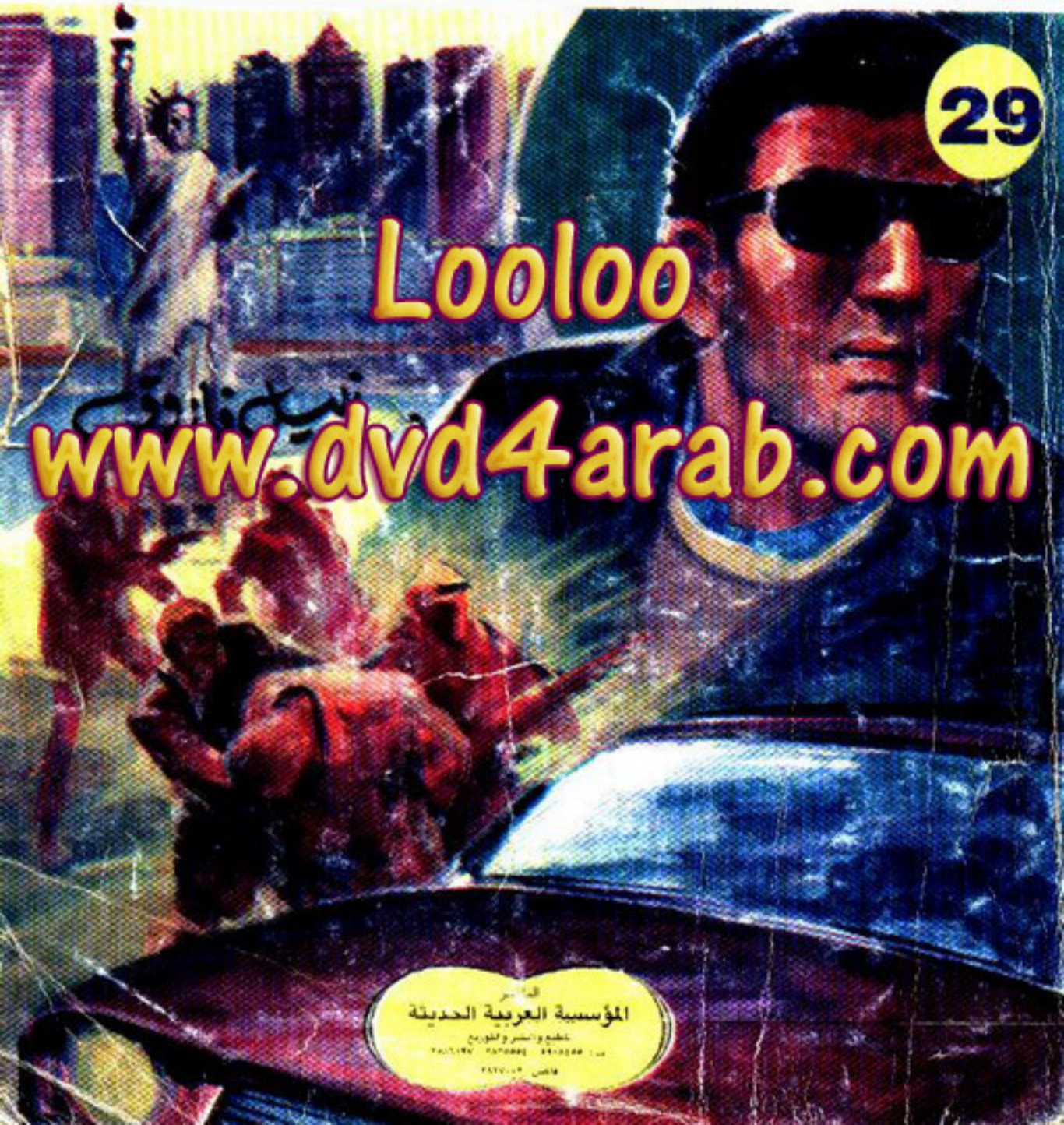

- مع بدء العـــد التنـــازلى ، نحو القـــرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيـــل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضـــارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليـوم

د. نبيل فاروق

أبيض وأســود (قصة قصيرة)

« (ثناء) .. هل يمكننى أن أتحدَّث معك لدقيقة ؟! »

رفعت (ثناء) عينيها العسليتين عن أوراقها فى بطء ، وهى تتطلّع إلى زميلها فى البنك ، والذى بدا مرتبكًا أكثر مما ينبغى ، وتساءلت فى أعماقها عن سر مطلبه هذا ، على الرغم من أنهما يعملان فى قسمين مختلفين تمامًا ، ولا يلتقيان إلا نادرًا ، ثم لم تلبث أن تنحنحت ، واعتدلت فى مجلسها ، وهى تقول برصانة زائدة :

ـ تحت أمرك يا أستاذ (يوسف) ..

بدا لها (يوسف) أكثر ارتباكًا ، وهو يزدرد لعابه ، وينقر بأصابعه على سطح مكتبها فى عصبية ، قائلاً :

ـ أريد أن أتحدَّث إليك لدقيقة واحدة .

لم تفهم لماذا كرَّر قوله ، فتنهَّدت قائلة :

ـ كلى آذان مصغية .

ازدرد لعابه بصوت مسموع هذه المرة ، وداعب رباط عنقه فى ارتباك أكثر ، وهو يجيب بصوت خافت ، وكأنما يخشى أن يسمعه أحد :

ـ وحدنا .

هتفت بدهشة بالغة :

ـ وحدنا ؟!

ارتفع صوتها ، وهى تطلق هتافها ، على نحو جذب أنظار الجميع ، وجعلهم يلتفتون إليهما ، فبدا الضيق على وجه (يوسف) ، وهو يقول ، فى شىء من العصبية :

ـ لو سمحتِ .

أنبها ضميرها ؛ لأنها أحرجته على هذا النحو ، ولم تجد أمامها وسيلة للاعتذار ، سوى أن نهضت مغمغمة :

ـ تحت أمرك .

قطعا معًا ممرًّا صغيرًا يربط بين حجرتيهما ، وتوقَّفا عند تجويف فى نهايته ..

وتحدَّثا ..

والعجيب أنه كان دقيقًا للغاية ..

فلم يستغرق حديثه معها سوى دقيقة واحدة ..

بالضبط ..

ولكنه ، عندما انصرف ، كان قد ترك فى أعماقها دهشة وحيرة شديدتين ..

للغاية ..

دهشة وحيرة لم تفارقاها ، حتى عادت إلى منزلها ، وأبدلت ثيابها ، ثم ذهبت إلى أمها فى المطبخ ، وتحدَّثت معها قليلاً ، قبل أن تستجمع سعادتها ، وتقول فى كلمات سريعة :

ـ اليوم جاءنى عرض زواج .

التفتت إليها أمها بوجه متهلل ، وهى تهتف :

ـ عريس ؟!

أومأت (ثناء) برأسها فى صمت ، فتركت أمها ما بيدها ، لتسألها فى لهفة :

ـ مَنْ هو ؟! وماذا يعمل ؟!

أجابتها (ثناء) ، وهى تتظاهر باللا مبالاة :

ـ اسمه (يوسف) .. زميلى بالبنك .

سألتها أمها بلهفة أكثر :

ـ وما رأيك ؟!

تردَّدت (ثناء) بضع لحظات ، قبل أن تجيب :

ـ إنه شاب متدين ملتزم، ناجح فى عمله ، من أسرة كريمة ، ولكن ....

بترت عبارتها عند هذا الحد ، وبدت حائرة مضطربة ، فقالت أمها ، فى محاولة لتشجيعها على الاستطراد :

ـ ألا يمتلك ما يكفى ..

قاطعتها (ثناء) بسرعة :

ـ لديه شقة فى (الدقى) ، وسيارة صغيرة ، ويقول : إنه مستعد لكل طلباتنا .

تراجعت أمها ، قائلة فى دهشة :

ـ ماذا هناك إذن ؟!

تردَّدت (ثناء) طويلاً هذه المرة ، وبدت أكثر حيرة واضطرابًا ، قبل أن تجيب فى خفوت شديد :

ـ إنه أسود .

خُيِّل لأمها أنها لم تسمع الجواب ، فمالت نحوها ، متسائلة :

ـ ماذا ؟!

هتفت (ثناء) فى عصبية :

ـ أسود .. إنه أسود .. زنجى .. أشبه بمواطنى جنوب (إفريقيا) .

صمتت والدتها بضع لحظات ، وهى تتطلَّع إليها ، قبل أن تسألها بابتسامة حائرة :

ـ وماذا فى هذا ؟!

لوَّحت بذراعها ، مجيبة فى عصبية :

ـ سيكون التناقض بيننا كبيرًا وواضحًا .. أنا بيضاء جدًا كما تعلمين .. ثم إننى لا أتصوَّر أن أنجب أبناءَ بلونه هذا .

تطلَّعت إليها أمها فى صمت لوقت آخر ، ثم لم تلبث أن ابتسمت ، وربَّتت على كتفها ، قائلة :

ـ إنه شأنك يا بنيتى .. اقبلى أو ارفضى، ولكن خذيها نصيحة من أمك ، ولا تجعلى هذا سببًا للرفض أو القبول .

سألتها باضطراب واضح :

ـ كيف ؟!

أجابتها أمها فى حنان :

ـ كلنا بشر يا بنيتى .. كلنا عباد الله (سبحانه وتعالى) ، أيًا كان لوننا .. أبيض .. أسود .. أصفر .. أحمر .. أو حتى بنفسجيًا .. لا فرق بيننا إلا بالتقوى وحدها .. ثم إنه من أدراك أن صاحب البشرة البيضاء يحمل فى أعماقه قلبًا أبيض ؟! ربما كان قلبه أشد سوادًا من ظلمة القبر ..

هزَّت (ثناء) رأسها فى حدة ، قائلة :

ـ ولكننى لا أستطيع احتمال هذا .

أومأت أمها برأسها متفهِّمة ، وغمغمت :

ـ هذا شأنك يا بنيتى

قالتها ، وعادت إلى عملها فى هدوء ..

ولكن (ثناء) لم تنصرف ..

لقد فركت كفيها بضع لحظات فى عصبية ، قبل أن تقول :

ـ لقد طلبت منه أن يمنحنى مهلة للتفكير .

غمغمت أمها ، دون أن تلتفت إليها :

ـ حسنًا فعلت .

قالت بنفس العصبية :

ـ لم يعترض ، وأخبرنى أنه سينتظر ، حتى لو استغرق الأمر دهرًا كاملاً .

غمغمت أمها :

ـ عظيم .

فركت (ثناء) كفيها بعصبية أكثر ، قبل أن تقول فى حدة :

ـ ولكننى سأرفض فى النهاية .

تمتمت أمها :

ـ هذا شأنك .. كل شىء قسمة ونصيب .

لم يعد هناك ما يقال بعدها ..

لذا ، فقد انصرفت (ثناء) ..

ولكن الحيرة والقلق لم ينصرفا عن ذهنها قط ..

لقد لازماها لوقت طويل للغاية ..

شهر كامل لم يفارقاها ..

ولم تحسم فيه أمرها ..

ولقد التزم (يوسف) بكلمته ، طوال هذا الشهر ..

إنه لم يسألها قط عن قرارها ..

ولم يطرح الأمر مرة ثانية قط ..

عملهما فى قسمين مختلفين ساعده على هذا ، وإن لم تخف عيناه نظرة اللهفة والترقُّب ، التى تقفز إليهما ، كلما التقيا ، أو وقع بصره عليها ..

ومع مرور الأسبوع السادس ، اختفت تلك النظرة من عينيه ، واحتلّت محلها نظرة حزينة صامتة ، وكأنما أدرك أنها قد رفضته ، دون أن تفصح عن هذا ..

ولأسبوع آخر ، راح يتحاشى مقابلتها ، حتى لا تفصح عيناه عن عذابه ..

ولكن للقدر تصاريفه ..

فعلى الرغم من أن أحدًا لا يعلم ما بينهما ، أصدر مدير البنك قراره بترقية (يوسف) إلى درجة رئيس قسم ..

نفس القسم ، الذى تعمل فيه (ثناء) ..

وهنا هبط قلبها بين قدميها ..

لقد أصبح رئيسها ، بعد أن أدرك أنها قد رفضته ..

وسينتقم منها حتمًا ..

كل الرجال يفعلون هذا ..

لا أحد منهم يحتمل رفض امرأة له ..

ولأن تلك الفكرة الأخيرة قد سيطرت عليها تمامًا ، فقد استقبلت يومه الأوَّل ، فى منصبه الجديد ، بصرامة ورصانة حادتين، بديا معًا أشبه برد فعل عدوانى، لم يجد أحد ما يبرِّره ..

ولكن العجيب أنه قد استقبل هذا بهدوء شديد ..

ودون لمحة واحدة من الغضب ..

كان حنونًا ، راقيًا ، متفهمًا ، إلى حدٍّ لم تتصوَّر وجوده قط ..

ولكنه ما زال يتحاشى النظر إلى وجهها ..

ما زال يخفى عينيه عنها ..

وفى أعماقها ، تولَّد شعور قوى بالندم وتأنيب الضمير ..

ولأنها شجاعة واثقة ، فقد ذهبت إليه مباشرة ، قائلة :

ـ أستاذ (يوسف) .

رفع عينيه إليها فى تردُّد متوتر ، وأطل منهما تساؤل قلق ، فأكملت :

ـ أعتقد أننى قد أسأت استقبالك ؛ بسبب ..

قاطعها بسرعة :

ـ لقد نسيت هذا تمامًا .

نطقها بحنان جارف حزين ، اختلج معه قلبها ، قبل أن تتراقص على شفتيه ابتسامة باهتة ، وهو يتمتم مكملاً :

ـ ثم إنه لن يمكننى أن أغضب منك قط .

قالها ، ثم استدرك مرتبكًا :

ـ أعنى أنكِ أفضل موظفة هنا ، و .....

قاطعته هى هذه المرة :

ـ أما زلت تنتظر ؟!

رأت فى وضوح تلك الارتجافة ، التى سرت فى جسده كله ، وهو يتطلَّع إليها مبهورًا ، قبل أن يهمس :

ـ الدهر لم يمض بعد .

تهلَّلت أساريرها ، وهى تقول فى خجل وسعادة :

ـ سأُخبر أبى أنك ستزورنا غدًا .

سألها بكل لهفة الدنيا :

ـ ألا يمكننى أن آتى اليوم ؟!

وفى نهاية الأسبوع الثامن ، وعندما التف الزملاء حولهما ، يهنئونهما بدبلتى الخطبة ، اللتين تتألقان فى إصبعيهما ، وفرحة الدنيا كلها تطلّ من عيونهما ، جذبت إحدى الزميلات (ثناء) إليها ، وهمست فى أذنها :

ـ مبروك.. إنه شخص ممتاز، ولكن المشكلة أنه أسود، و..

وبدهشة غاضبة مستنكرة ، التفتت إليها (ثناء) ، هاتفة :

ـ وماذا فى هذا ؟!

★ ★ ★

(تـمَّت)

اختبر معلوماتك

مرة أخرى نلتقى ..
ومرة أخرى نطرح أسئلتنا ..
وكما قلنا من قبل ، فالأمر ليس امتحانًا ..
إنه سعى للمعرفة ..
للثقافة ..
والحضارة ..
وكل شىء مباح ، فى اختبارنا هذا ..
وبالذات البحث عن الجواب ..
اسع إلى هذا ..
ابحث عن كتب ..
ومراجع ..
وموسوعات ..
ثم أجب الأسئلة ..

وفيما بعد ، وعندما تكتسب العديد من المعارف والمعلومات ، سيمكنك ، وبكل زهو ، أن تجيب السؤال التقليدى ..
هل أنت ..... مثقّف ؟!

★ ★ ★

١ ـ أكبر كواكب المجموعة الشمسية ، كتلته تبلغ ٣١٦ مرة من كتلة الأرض ، ويدور حول الشمس فى أحد عشر عامًا ، وثلاثمائة وأربعة عشر يومًا أرضيًا .. فى سطحه مناطق لامعة وسحب مجمّعة ، وأشهر البقع على سطحه تم كشفها عام ١٨٧٨ م ، وهو :

☐ أورانوس . ☒ المشترى . ☐ المريخ .

٢ ـ اسم يطلق على خنافس من فصيلة (سكارابيدى) ، ومنها نوع مقدّس ، يصنع كرات من روث الحيوانات كغذاء له .. قدّسه قدماء المصريين ؛ لاعتقادهم بصلته بإله الشمس ، والبعث والخلود ، وهو :

☒ الجعران . ☐ البق . ☐ الخنفسة الملكية .

٣ ـ نبات ، اسمه العلمى (فاسيلوس فلجارس) ، من الفصيلة البقلية ، موطنه الأصلى (أمريكا الجنوبية) ، كما وجد فى غرب (آسيا) و (اليونان) ، ولم يعرفه قدماء المصريين ، وهذا النبات هو :

☐ البرسيم . ☐ الفول . ☒ الفاصوليا .

٤ ـ حيوان تربى ، برى ، ليلى ، يتبع فصيلة الكلبيات ، يستوطن جنوب شرق (أوروبا) و (آسيا) ، و (إفريقيا) .. يتغذّى بالجيف والنبات والحيوان ، ومنه نوع إفريقى موجود فى (مصر) ، وهو :

☐ الذئب . ☑ ابن آوى . ☐ الضبع .

٥ ـ ابنة (بطليموس) الثانى عشر .. ارتقت العرش مع أخيها (بطليموس) الثالث عشر ، بناءً على وصية والدهما ، وكانت شجاعة ، قوية ، واسعة الثقافة والطموح .. احتلّ الرومان (مصر) فى عهدها ، وانتهت حياتها بالانتحار ، وهى :

☑ كليوباترا . ☐ نفرتيتى . ☐ حتشبسوت .

٦ ـ فيزيقى بريطانى ، ولد فى (نيوزيلندا) ، وعمل أستاذًا للفيزياء فى جامعة (ماك جيل) .. نال جائزة (نوبل) فى الكيمياء عام ١٩٠٨ م ، على بحوثه فى النشاط الإشعاعى ، وله بحوث عديدة مهمة ، حول تكوين الذرة ، وهو :

☐ ألبرت أينشتين . ☐ جاليليو . ☑ رذرفورد .

٧ ـ بحر ضيق نسبيًا ، يمتد لمسافة ٢٤٠٠ كم ، بين (إفريقيا) و (آسيا) ، تحتل مياهه أعمق أجزاء الأخدود الإفريقى العظيم .. زادت أهميته كطريق للملاحة الدولية ، بعد حفر قناة السويس ، وهو :

☐ البحر الأحمر . ☐ بحر العرب . ☐ بحر قزوين .

٨ ـ لعبة تستخدم مضربين وكرة ، ويمكن لعبها بلاعبين أو أربعة ، فوق مائدة محدودة ، بحيث لا بد أن تعبر الكرة شبكة فى المنتصف ، وترتطم بأرض الخصم ، قبل أن يُسمح له بردها ، ويطلق عليها اسم :

☐ كرة المائدة . ☐ الكرة الخماسية . ☑ تنس الطاولة .

٩ ـ مدينة فى (روسيا) ، تعتبر أكبر مدن الاتحاد السوفيتى السابق ، وعاصمة جمهورية (روسيا) فى الوقت الحالى ، وأعظم مراكزها الصناعية . حيث تنتج الصلب والآلات ، والسيارات ، والطائرات ، والمنسوجات وغيرها ، وهى :

☐ لينينجراد . ☑ موسكو . ☐ كييف .

١٠ ـ فارس وبطل مسلم ، ولد فى (تكريت) ، من أصل كردى ، أعلن نفسه سلطانًا على (مصر) ، بعد وفاة (نور الدين) ، وشن حربًا حامية الوطيس على الصليبيين ، حتى هزمهم فى معركة (حطين) ، وهو :

☐ الظاهر بيبرس. ☐ سيف الدين قطز. ☑ صلاح الدين الأيوبى.

١١ ـ شكل هندسى ، يوضح العلاقة بين كميات مختلفة ، يعتمد على علم الإحصاء ، وعلى ما يسمى برسوم المستطيلات الرأسية والقضبان ، حيث تتكوّن دالة ، يمكن رسمها على شكل منحنيات ، وهو ما يعرف باسم :

☐ الجدولة . ☑ الرسم البيانى . ☐ التصميم .

١٢ ـ ملاح عربى ، ولـد فى جزيرة العرب ، التقى بالرحالـة (فاسكودى جامـا) ، فى شرق (إفريقيا) ، عـام ١٤٩٨ م ، وقـاده إلـى (قاليقـوط) فـى (الهنـد) .. ألـف ثلاثين كتابًا فـى البحرية ، أشهرها (الفوائد فى أصول علم البحـر والقواعـد) ، وهو :

□ سندباد . ☑ ابن ماجد . □ علاء الدين .

١٣ ـ مدينة بصعيد (مصر) ، على الضفة الشرقية للنيل ، فى محافظة (قنا)، تعتبر من أشهر المدن السياحية، حيث تحتلّ جزءًا من موقـع طيبـة القديمـة ، وأشـهر معالمهـا معبد يعـرف باسمها ، بنى فى عهد أمنحوتب الثالث ، لعبادة الإله (آمون) ، وهى :

□ أسـوان . □ قوص . ☑ الأقصر .

١٤ ـ اسمها العلمى (ليكو برسيكم اسكيولنتم) ، من الفصيلـة الباذنجانيـة ، موطنهـا الأصلـى (أمريكـا الجنوبيـة) وجنوبهـا الغربى .. زرعها الهنود الحمر منذ قرون عديدة ، وتزرع الآن فى جميع أنحاء العالم ، وهى :

☑ الطماطم . □ الكوسة . □ القرع .

١٥ ـ زعيم سياسى مصرى، كرّس حياته للخدمة العامة ، بسببه اندلعت ثورة ١٩١٩م، انتخب رئيسًا لمجلس النوّاب عام ١٩٢٥، وروّعت البلاد عند وفاته ، عام ١٩٢٧م ، وهذا الزعيم هو :

□ مصطفى النحاس . □ على ماهر . ☑ سعد زغلول .

١٦ ـ ثانى أكبر المحيطات فى العالم ، يقع بين الأمريكتين وقارتى (أوروبا) و (إفريفيا) .. يتصل بالمحيط الهادى عبر قنـاة (بنمـا) ، وبالبحر الأبيض المتوسـط ، عبـر مضيق جبل (طارق) ، وهو :

☑ المحيط الهندى. □ المحيط الأطلنطى. □ المحيط القطبى.

١٧ ـ مدينة أسبانية ، فى إقليم (قشتالة) الجديد ، وتعتبر أهم مـدن (أسبانيا) ، مـن الناحيـة التاريخيـة والثقافيـة ، يرجـع تاريخها إلى ما قبل الرومان ، سقطت فى قبضتهـم عـام (١٩٣ ق.م) ، وهى :

□ لشبونة . ☑ طليطلة . □ مـدريـد .

١٨ ـ نسيج نباتى، وظيفته التخزين، يتألف من خلايا كبيرة ، بينها فراغات بينية ، ويوجد وسط الساق، فى النباتات العشبية ، ويتضاءل فى الأشجار ؛ لضغط الأنسجة الخشبية ، وهو :

☑ النخـاع . □ الإسفنج . □ الكلوروفيل .

١٩ ـ عاصمة مقاطعة (فينيتو) ، شمال شرق (إيطاليا) ، تقع على جزر متعددّة ، فى الطرف الشمالى للبحر الأدرياتى ، وتجـرى بين الجزر ١٦٠ قنـاة ، تقطعهـا مئات الجسور ، وهو ما يميّزها عن أية مدينة أخرى فى العالم ، وهى :

□ نابولى . □ لشبونة . ☑ فينيسيا .

٢٠ ـ أعظم الشعراء والكتاب المسرحيين الإنجليز ، ومن أبرز الشخصيات فى الأدب العالمى ، إن لم يكن أشهرها قاطبة ، يحوى أدبه حكم ومواعظ مدهشة ، ومن أهم أعماله (هاملت) ، و (حلم ليلة صيف) ، وهو :

☐ برنارد شو . ☑ ويليام شكسبير . ☐ هنرى كوريل .

* * *

وأخيرًا ، وكما يحدث دائمًا ، انتهى اللقاء ..
انتهى بعد أن قرأت الأسئلة ، وبحثت ، وحاولت ..
ثم توصلت إلى الجواب ..
وإن لم تكن قد فعلت بعد ، فعد إلى الأجوبة ، فى نهاية الكتاب ..
المهم أن تعرف ..
وأن تزيد معارفك ..
حتى لقاء آخر ..
وكتاب آخر بإذن الله ..

* * *

كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب
المرأة مشكلة ... صنعها الرجل
(دراسة)

من الجانى ؟!

من الجانى ؟!

أى هول هذا ، الذى تطالعنا به الصحف اليومية ، والمجلات الأسبوعية والشهرية ، وكل وسائل الإعلام المعروفة ، منذ ما يزيد على عقد كامل من الزمن ..

امرأة تتزوَّج ثلاثة رجال ، فى آن واحد ..

فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها ، تفرّ من منزل أبويها ، وتحترف الفساد ..

زوجة تقتل زوجها ، وتقطّعه إربًا ، وتضعه داخل أكياس من البلاستيك ، لتلقى به فى كل أنحاء المدينة ..

سيِّدة مجتمع تدسّ السم لزوجها، بعد ربع قرن من الزواج..

عشرات من جرائم المرأة طفت فوق السطح ، فى عالم ما بعد الحرب ..

حرب أكتوبر ١٩٧٣م ..

موجة عجيبة من العنف ، تجتاح النساء ، وكأنما سكن الجن الغاضب أجسادهن ..

ماذا حدث ؟!

ماذا أصاب المجتمع ؟!

والأسرة ؟!

والمرأة ؟!

وماذا أصاب الرجل ؟!

قبل أن تتسرَّع فى طرح الجواب ، دعنا نُلقِ أخطر سؤال فى هذا الأمر ..

من الجانى ؟!

من المسئول عما يحدث ؟!

ثم ، وهذا هو الأهم ، لماذا تفعل المرأة كل هذا ؟!

لماذا تهرب ، وتقتل ، وتمزّق ، وتخالف كل القوانين المعروفة ؟!

والجواب ، وإن لم يرق لك ، فهو لأنها مقهورة ..

نعم ..

المرأة التى قتلت زوجها ، لم تكن لتفعل هذا ، لو أنه يحسن معاشرتها ، ويرعى اللّه (سبحانه وتعالى) فيها ، وينفذ تعاليمه ، التى أمره بها ، تجاه زوجته وأسرته ..

لم تكن لتقتله ، لو أن بإمكانها أن تحصل على الطلاق منه ، دون أن تمزّقها المحاكم والقوانين ، وبطء إجراءاتها ، وتلقى بها وبأولادها جانعة ذليلة ، تنافس كلاب الطرقات ، فى التهام ما يلقى به زوجها وأمثاله ، فى صناديق القمامة ..

وهذا ينطبق أيضًا على سيِّدة المجتمع ..

والمرأة ذات تعدُّد الأزواج ..

وحتى على الفتاة الهاربة ..

فكل واحدة منهن وجدت نفسها ذليلة مقهورة ، فى بيت أبيها ، أو مع شقيقها ، أو زوجها ..

أو حتى ابنها ..

ومن المؤكد أنها قد احتملت ..

واحتملت ..

واحتملت ..

حتى فاض بها الكيل ذات مرة ..

وفقدت صوابها ..

وقتلت ..

فالقتل ليس بالفعل الهيِّن أو البسيط ، بالنسبة للمرأة ..

أية امرأة ..

بل وبالنسبة لأى بشر عادى ، رجلاً كان أو امرأة ..

إذن فالوصول إليه يحتاج إلى طاقة هائلة ..

طاقة من المقت ..

والغضب ..

وطول الاحتمال ..

ومن المؤكد أن عشرات من عبارات الاستنكار والاستهجان قد انطلقت من حلوق أكثر من شاب ورجل ، وهم يقرءون الأسطر السابقة ..

وليس لدى أدنى شك فى أن معظمهم يرى أن قاتلة زوجها سفَّاحة متوحِّشة ، تستحق السحل والتقطيع ، وربما القلى فى

الزيت المغلى ، بعد أن قطعت أوصاله وعبأته فى تلك الأكياس البلاستيكية السوداء ..

ولكن هل فكَّر أحدهم لحظة ، فى أن زوجها هذا قد قطَّع أوصالها مئات المرات ، بمعاملته المهينة ، وقهره المستمر ، وإذلاله لها فى كل لحظة ، طوال سنوات وسنوات ؟!

ثم إن المشكلة لا تكمن فى تعبئته فى تلك الأكياس ..

لقد فقدت صوابها أولاً ..

وقتلته ..

وبعد أن أصبح جثة هامدة أمامها ، أصابها حتمًا رعب هائل ، وذعر لا حدود له ، باعتبار أنها ليست سفَّاحة بطبعها ..

ومع ذلك الرعب ، والصورة المفزعة ، التى رسمها خيالها لحبل المشنقة ، راح عقلها المضطرب يبحث عن وسيلة لإخفاء جريمتها ، والفرار من القصاص ..

وفعلت ما فعلت ..

لم يكن زوجها حيًّا حينذاك ، وهى تقطع أوصاله ، كما كانت هى ، عندما قطع أوصالها ألف مرة ..

كان مجرَّد جثة ، تسعى لإخفائها بأية وسيلة ..

وهى لم تفعل هذا سعيدة أو منتشية ..

بل فعلته خائفة ، هلعة ، مذعورة ..

وقبل أن يتضاعف استنكاركم واستهجانكم ألف مرة ، دعونى

أخبركم أوّلاً أننى لا أؤيّد الجريمة بأية صورة ، وبأننى أصرّ دائمًا على أن يدفع المجرم ثمن جريمته ، وأن يلقى جزاءه ، بغضّ النظر عن أية عوامل أخرى ..

ولنا فى القصاص حياة ، كما أخبرنا الله (عزّ وجلّ)(*)..

ولكننا نناقش هنا الأسباب والدوافع ، التى أدّت إلى ارتكاب الجريمة نفسها ..

ولو أردتم رأيى ، فالمشكلة الرئيسية تكمن فى أننا لا نعرف واجباتنا ..

معظم الرجال يعرفون الكثير عن حقوقهم الزوجية ، وعن واجبات زوجاتهم وأبنائهم وأشقائهم تجاههم ، ويحفظونها عن ظهر قلب ، ويردّدونها بمناسبة وبدون مناسبة ..

ولكن تسعين فى المائة من هؤلاء الرجال (وربما أكثر) يجهلون تمام الجهل ، كل أمر يتعلّق بحقوق زوجاتهم ، وواجباتهم نحوهن ..

وفى كل صغيرة وكبيرة ، يصرخ الرجل مطالبًا بحقه ، ومتهمًا زوجته بالتقصير والإهمال ، و ... ، و ...

ولكن نادرًا ما يسمح لزوجته بالمطالبة بالمثل ..

(*) آية ١٧٩ من سورة البقرة { ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون } .

وفى بعض البيئات ، يكون هذا مستحيلاً ..

ثم إنه ، كما يقول الإعلان الشهير ، هناك من يسىء فهم الرجولة ..

بل أكاد أقول إنه لا يوجد ، إلا فيما ندر ، من يفهم المعنى الحقيقى للرجولة ..

والقيادة ..

والرعاية ..

فالرسول (صلى الله عليه وسلم) ، يؤكّد لنا أن كلاً منا راعٍ ، ومسئول عن رعيته ..

إذن فالرجل راع ، ومسئول عن رعيته ..

وهذا يعنى أنه ليس سيّدًا ، أو سلطانًا ، أو ديكتاتورًا ..

أو طاغية ..

لا ينبغى له أبدًا أن يكون (سى السيّد) ، الذى يأتى إلى المنزل فنخرس كل الأفواه رعبًا وفزعًا ، وينكمش الكل هلعًا ، مع حاجبيه المعقودين ، وملامحه التى تفيض بالغضب الصارم بلا مبرّر ، ثم يجلس ليأكل ، والكل يزدرد لعابه خوفًا وجوعًا ، حتى ينتهى من طعامه ، فيترك ما فاض منه للباقين ..

الرجل ـ على العكس تمامًا ـ ينبغى أن يقدّم الطعام لرعيته أوّلاً، ويطمئن إلى أن كلاً منهم قد شبع، قبل أن يبدأ هو طعامه..

الرجل هو من يمنح زوجته وأولاده مزيجًا متوازنًا ، من الحب والحزم ، والعطف والشدة والرحمة ..

ومن لا يرحم لا يرحم ، كما قال الرسول الكريم (صلى اللّه عليه وسلّم) ..

فالرجولة مسئولية ، وليست امتيازًا ..

لو فهم الرجال هذا ، وطبقوا ما أمر بـه شرع اللّه (سبحانه وتعالى) ، متجاهلين ما تنادى به تقاليد بالية ، وعادات سخيفة موروثة ..

لو حدث هذا ، لما شعرت المرأة بالقهر والظلم والذل والطغيان ..

ولما فرّت الابنة ، أو قتلت الزوجة ، أو قُهِرَت الأم ..

لو طبّق الرجـال الشرع ، لمـا حبس أحدهم زوجتـه ، وأصرّ على عدم طلاقها ، عندما تناشده هذا ، ليذلّها ويقهرها فحسب ..

ولأنفق عليها مما رزقه اللّه (سبحانه وتعالى) ..

ولمنحها ، ومنح أبناءه حبه وعطفه ورعايته ..

هل يمكنك أن تتصوّر جريمة ترتكبها امرأة ، فى ظل ظروف كهذه ؟!

لو تصوّرتها أنت ، فلا يمكن أن أتصوّرها أنا ..

فلكل شىء فى الكون سبب ..

كل شىء بلا استثناء ..

هذا هو التوازن ، الذى صنعه الخالق (عزّ وجلّ) فى الدنيا ، والذى لا يختلّ قط ..

التوازن الذى يمكن أن تسير به الحياة ، دون أن تعبئ المرأة زوجها فى أكياس من البلاستيك ..

أو تدس له السم ..

أو تهرب منه ، لتتزوّج ثانيًا ، وثالثًا .

ولكن العالم ـ للأسف ـ ليس مثاليًا ..

هذا لأنه ليس عالم البشر ..

إنه عالم الرجل ..

العالم الذى وضع الرجال وحدهم فيه ، كل القوانين والقواعد..

ثم أتوا فيما بعد ليحاسبوا المرأة عن كل ما تقترفه ، بمنتهى العنف والقسوة ، والصرامة ..

بل والوحشية فى بعض الأحيان ..

ولقد احتملت المرأة هذا الظلم الفادح لسنوات ..

أو لقرون ..

ومع التقدّم والحضارة ، وانتشار وسائل الإعلام المختلفة ، أدركت المرأة أنها ليست كغيرها من النساء ..

وأنه هناك أخريات ، فى أماكن أخرى من العالم ، أو حتى فى وطنها نفسه ، ينعمن بكل ما حُرمت هى منه ..

وهنا انتبهت إلى الحقيقة ..

وثارت ..

ولقد أكّد أحد الفلاسفة أن الظلم وحده ليس الدافع إلى قيام الثورات ..

وإنما الإحساس بالظلم هو ما يفعل هذا ..

لقد ظلّت المرأة مظلومة مقهورة لقرون، دون أن تدرك هذا ..

ودون حتى أدنى سبب منطقى لحدوثه ..

ثم أثارت الحضارة عيونها ..

وعقلها ..

ومشاعرها ..

وهنا شعرت بالظلم ..

وتضاعف إحساسها بالقهر ..

ورفعت خنجرها ، لتغمده فى قلب الرجل ..

وعقله ..

وجسده ..

وعندما تحاكموها الآن ، لا تكونوا قساة فى إصدار حكمكم ..

سلوا أنفسكم أوَّلاً ..

من دفعها إلى هذا ؟!

ومن الجانى ؟!

الحقيقى .

د. نبيل فاروق

★ ★ ★

فصل جديد وأخير ، فى الكتاب القادم بإذن الله

روايات مصرية للجيب

عملية الأستاذ

الجزء الثالث

سلسلة جديدة

هذه القصة لم تحدث من قبل ..
أو ربما حدثت ..
أو أن بعضها حدث ، وبعضها لم يحدث ..
ضعها فى عقلك حسبما يتراءى لك ..
ولكن المهم أنها تحمل توقيع الوطن ..
توقيع (مصر) ..

د . نبيل فاروق

عملية الأستاذ

ملخص ما سبق نشره

كمحاولة لمنع الرئيس (السادات) من إعلان الإيقاع بضابط مخابرات إسرائيلى ، فى خطابه إلى الشعب المصرى ، قام الإسرائيليون بعملية انتحارية ، لاختطاف ضابط المخابرات المصرى (رفعت) ، من مطار (نيويورك) ولكن المخابرات المصرية أرسلت فريقًا يتكوَّن من (نسيم) و (فاى) ، لاستعادة (رفعت) ..

وكانت مواجهة عنيفة بين الجانبين ..

وبقيادة ضابط (الموساد) المحنك (يازوسكى) ، شنَّ الإسرائيليون حربًا شعواء على (نسيم) و (فاى) ، حاولوا خلالها قتل الأوَّل ، فى قلب (نيويورك) ، فى نفس الوقت الذى نبشوا فيه الأرض ، بحثًا عن الثانى ، الذى يجهلون كل شىء عنه تمامًا ..

وراح الوقت يمضى فى سرعة ، والرئيس (السادات) يتابع الموقف فى قلق من (القاهرة) ، وقلبه ينبض مع الرجال فى (نيويورك) ، وموعد خطابه ، الذى سيعلن فيه الإيقاع بالضابط الإسرائيلى (إيليا) يقترب ..

ويقترب ..

ويقترب ..

ولم يخذله (نسيم) و (فاى) أبدًا ..

لقد قاتل (نسيم) كالليث ، ونجح فى الإفلات من فخ الإسرائيليين ، فى حين تمكن (فاى) من بلوغ مكتب (بروكلين) الذى يخفون فيه (رفعت) ، وبدأ عملية الإنقاذ بالفعل ..

ولكن (يازوسكى) أدار اللعبة بذكاء ودهاء منقطعى النظير ..

فلعبة متقنة ، عمل على نقل (رفعت) من المكان ، على نحو واضح سافر ؛ ليوحى بأنها خدعة ، وبأن من يتمّ نقله ليس الضابط (رفعت) فى الواقع ..

وكادت اللعبة تنجح ..

لولا أن انتبه إليها (نسيم) بذكاء مدهش ..

فى اللحظة الأخيرة ..

وبينما كان (فاى) يقاتل الإسرائيليين بمنتهى العنف ، داخل مكتب (بروكلين) ، أصدر إليه (نسيم) أمرًا بالتحرك فورًا ، لإنقاذ أستاذه ، قبل أن يتم نقله إلى مكان آخر ..

وبلا تردّد ، انطلق (فاى) لإنقاذ أستاذه ..

ووثب عبر النافذة ...

من ارتفاع عشرة طوابق ..

★ ★ ★

٧ – وثبة ..

اتسعت عيون الإسرائيليين عن آخرها فى ذهول ، عندما وثب (فاى) أمامهم عبر النافذة المفتوحة ، دون ذرة واحدة من التردّد .

ودون أن يدرى أحدهم ، انطلقت من حلوقهم شهقة ..

ومع نهايتها ، اختفى جسد الشاب ..

وهتف أحد الإسرائيليين فى ذهول :

ـ لقد انتحر .

ردّد آخر ، فى دهشة مستنكرة :

ـ انتحر ؟!..

قالها ، ثم اندفعوا جميعهم ، فى آنٍ واحد تقريبًا ، نحو النافذة ، التى قفز منها (فاى) ..

وعندئذ ..

عندئذ فقط ، أدركوا أنه لم ينتحر ..

وفهموا ما فعله بالضبط ..

فمع وثبته ، تعلَق الشاب بذلك الحبل ، الذى تدلى به من السطح ، ودفعه أمامه فى خفة ، ليندفع جسده إلى جانب المبنى ، قبل أن يتخلى عن الحبل ، ويقفز فى الهواء كنسر

بشرى ، ويتعلّق بأسطوانة الطوارئ ، فى زاوية المبنى(*) ..

وبخفة مذهلة ، ترك جسده ينزلق على الأسطوانة بسرعة كبيرة ، وعيناه ترصدان السيارة السوداء الكبيرة ، التى توقّفت أمام المبنى مباشرة ، وفريق من الإسرائيليين يدفع (رفعت) المصاب فى ذراعه أمامه نحوها ، فى غلظة وسرعة ، وخشونة ، و ...

وبسرعة مدهشة ، وقبل حتى أن يبلغ الأرض ، استلّ الشاب خنجره ، وألقاه بكل قوته نحو السيارة ..

وفى نفس اللحظة ، لمحه أحد الإسرائيليين ، وصرخ ، وهو يدير فوهة مسدسه نحوه :

ـ احترسوا .

وبسرعة ، مال جانبًا ؛ ليتفادى الخنجر ، وهو يطلق رصاصات مسدسه ، المزوّد بكاتم للصوت ..

ولقد تجاوزه الخنجر بالفعل ..

لأنه لم يستهدفه أبدًا ..

فقد واصل طريقه إلى الهدف الأساسى، الذى ألقاه نحوه (فاى)..

(★) فى بعض المبانى الحديثة فى (نيويورك) ، يتم تزويد المبنى بأسطوانة مجوّفة ، يتمّ تبطينها من الداخل بمطاط سميك ، ووسائل هوائية ناعمة ، بحيث يمكن لسكان المبنى الانزلاق عبرها إلى الشارع ، بسرعة نسبية ، فى حالة حدوث حريق ، أو أى عمل إرهابى ، يستهدف المبنى .

وانغرس فى إطار السيارة ..

وفى نفس اللحظة ، التى تفادى فيها الشاب الرصاصة ، التى أطلقها الإسرائيلى نحوه ، انفجر الإطار الأمامى الأيمن للسيارة ..

ومع انفجاره ، وصرخة الغضب ، التى أطلقها أحد الإسرائيليين ، أدرك (رفعت) ما يحدث ، على الرغم من القناع الأسود ، الذى يخفى وجهه ..

أدرك أنها محاولة لإنقاذه ..

فتحرّك ..

بكل سرعته ..

وكل قوته ..

وارتفعت قدمه تركُل أقرب الرجال إليه ، وهو يدفع رأسه إلى الخلف ، ليضرب أنف الإسرائيلى، الذى يمسك به من الخلف، فى نفس اللحظة التى واصل فيها (فاى) انزلاقه على الأسطوانة ، حتى بلغ الطابق الأوّل ، ورصاصات الإسرائيليين تطارده فى شراسة وتخترق كتفه، وعضلة ساقه اليسرى، دون أن يتوقّف لحظة واحدة..

أو يشعر حتى بإصاباته ..

فمع مرأى أستاذه يقاتل ، والإسرائيليون يدفعونه أمامهم فى شراسة ، وسائق السيارة يصرخ بهم ، ليستحثّهُم على الإسراع، فارت الدماء فى عروقه ، وتصاعدت الحمم إلى رأسه ، وانطلقت فى أعماقه صرخة قوية ، تستحثّه على القتال ..

ومع تلك الصرخة ، وثب مرة أخرى ..

واتسعت عيون الإسرائيليين، الذين يحملون مسدساتهم القوية ، وتراجعوا فى توتر ، أمام ذلك النسر الأعزل ، الذى يهبط عليهم من أعلى ..

ثم حدث الاصطدام ..

اصطدم جسد الشاب بثلاثة من الإسرائيليين ، وسقط معهم أرضًا ، فى نفس اللحظة التى هوى فيها إسرائيلى آخر على رأس (رفعت) المقيَّد بضربة قوية ، من كعب مسدسه ، والسائق يصرخ به :

ـ أسرع يا رجل .. أسرع ..

دفع الإسرائيلى (رفعت) فى قسوة ، داخل السيارة السوداء ، وهو يهتف فى عصبية :

ـ وماذا عن الإطار التالف ؟!

صرخ به السائق المحترف :

ـ قلت لك : أسرع .

وثب الإسرائيلى داخل السيارة ، فى نفس اللحظة التى أمسك فيها الشاب معصم أحد الإسرائيليين ، قبل أن يطلق رصاصات مسدسه فى وجهه ، وأداره فى سرعة وقوة ، لتنطلق رصاصة المسدس ، وتخترق رأس الإسرائيلى الثانى ، وتدفعه فى عنف ليرتطم بالثالث ، الذى سقط أرضًا ، مع صوت الفرقعة المكتوم ، الذى صحب انفجار قبضة (فاى) فى أنف زميله ، ولم يكد ينهض حتى انطلقت فى أنفه هو قرقعة ثانية ، اختفت معالمها ، مع صرير

إطارات السيارة السوداء الكبيرة ، وذلك الصوت المزعج ، الذى انطلق من إطارها الممزَّق ، وهى تنطلق بأقصى سرعة ، واحتكاك القلب المعدنى للإطار يطلق شرارات مخيفة ..

وبوثبة جديدة ، احتطف (فاى) مسدس أحد الإسرائيليين ، وانطلق يعدو خلف السيارة ..

وعلى الرغم من ساقه المصابة ، والدماء التى تغرق كتفه وسرواله وحذاءه ، راح يعدو بسرعة مدهشة ، وهو يطلق رصاصات المسدس ، محاولاً نسف أحد الإطارين الخلفيين ..

وفى دهشة تمتزج بذعر مستنكر، صرخ الإسرائيلى بالسائق المحترف :

ـ حان دورك لتسرع أنت يا رجل .. أسرع ، قبل أن يظفر بنا ذلك المصرى .

انعقد حاجبا السائق فى شدة ، وزاد من ضغط قدمه على دوَّاسة الوقود ، ويداه تقبضان على الإطار بكل قوتهما ، فى محاولة للسيطرة على السيارة ، التى أخلَّ فقدان الإطار بتوازنها الطبيعى ، وانبعث منها صوت عال مرتفع مزعج ، يكفى لإيقاظ مدينة بأكملها ، وتطايرت منها شرارات رهيبة ، تكاد تشعل النار فى الشارع كله ..

وعلى الرغم من كل هذا ، فقد تضاعفت سرعة

إلا أنه لم يستسلم ..

كان من المستحيل أن يفعل ، وتلك السيارة تحمل أستاذه ..

أستاذه الأوّل فى عالم المخابرات ..

لذا ، فقد استعاد عقله فى سرعة خريطة (نيويورك) ، التى جعله أستاذه يحفظها عن ظهر قلب ..

ثم انحرف بغتة ، واندفع نحو شارع جانبى ..

ومع رؤيته لهذا ، فى مرآة السيارة الجانبية ، هتف السائق المحترف :

ـ لقد تخلّى عن المطاردة .

صاح به الإسرائيلى فى عصبية ، وهو يلوّح بمسدسه :

ـ واصل طريقك .. لا تتوقّف .. هل تفهم ؟!

ولم يكن السائق بحاجة للأمر والتهديد فعليًا ..

فكمحترف ، كان يدرك جيّدًا خطر الاطمئنان إلى نتيجة ما ، قبل أن ينزاح الخطر ..

تمامًا ..

لذا فقد واصل انطلاقه بالسيارة ، على الرغم من صوتها المزعج ، وصعوبة السيطرة عليها ، والشرارات التى تنبعث منها ، وعيناه تنتقلان من مرآة إلى أخرى ، وعقله يتساءل : هل تخلّى ذلك المصرى عن المطاردة بالفعل .. أم ..

وقبل حتى أن يكتمل تساؤله ، ظهر (فاى) فجأة ..

ظهر من شارع آخر ، وهو يندفع نحو السيارة بكل قوته ،

ومسدسه المزوّد بكاتم للصوت يطلق رصاصاته فى سخاء ..

وانفجر الإطار الخلفى الأيسر للسيارة ..

واخترقت رصاصات الشاب زجاجها الخلفى ..

وصرخ الإسرائيلى داخلها ، وهو يقفز بمسدسه ، ويطلق النار بدوره :

ـ ماذا يحدث ؟! ماذا يحدث ؟!

اختلّ توازن السيارة السوداء الكبيرة فى عنف ، كادت معه تنقلب على جانبها ، إلا أن سائقها المحترف نجح فى السيطرة عليها فى صعوبة ، فى نفس الوقت الذى أطلق فيه زميله رصاصات مسدسه نحو (فاى) ..

واخترقت رصاصة ثالثة ذراع الشاب ..

وتفجّر معها نهر من الدم ..

ولكن حتى هذا لم يوقفه ..

لقد واصل عدوه نحو السيارة ، التى تضاعف صوتها عنفًا وإزعاجًا ، وأطلق رصاصات مسدسه نحو الإسرائيلى ، وأصابه فى عنقه وصدره ، قبل أن تنفد رصاصاته تمامًا ..

ومع سقوط الإسرائيلى جثة هامدة ، صرخ السائق :

ـ يا للسخافة ! يا للسخافة !

وانحرف بالسيارة فى سرعة ، محاولاً الفرار من خصمه ، الذى بدا له أشبه بشيطان عملاق ، لا سبيل لهزيمته ، أو الفكاك منه قط ..

وهنا وثب (فاى) وثبة أخرى ..

وفى هذه المرة ، دفعته وثبته حتى سقف السيارة السوداء الكبيرة .. فتشبث به بكل قوته ..

و ...

وضغط السائق المحترف زرًا صغيرًا ، فى تابلوه السيارة ..

وانفتح السقف المتحرك دفعة واحدة ..

ثم انتزعه ثقل الشاب من مكانه ..

فطار فى عنف ..

حاملاً (فاى) معه ..

وسقط الاثنان أرضًا ..

بمنتهى العنف ..

كان الاصطدام مؤلمًا إلى أقصى حد ، ولقد تدحرج جسده على نحو مخيف ، والدماء تنزف من إصاباته فى شدة ، وصوت السيارة المزعج يبتعد ..

ويبتعد ..

ويبتعد ..

ثم يختفى فجأة ..

ووثب الشاب واقفًا على قدميه ..

وتجاهل جراحه ، والدماء التى تنزف منه فى غزارة ، وهو يعاود الجرى خلف السيارة ، مسترشدًا بآخر ما سمعه منها ، وقلبه يخفق بمنتهى العنف ..

وانفتح السقف المتحرك دفعة واحدة .. ثم انتزعه ثقل الشاب من مكانه .. فطار فى عنف ..

حتى وجدها أمامه فجأة ..

إطاراها ممزقان ، ورصاصاته اخترقت معظم جسمها ، والإسرائيلى ملقى صريعًا داخلها ..

أما فيما عدا هذا ، فلم يكن هناك أثر لشىء أو شخص آخر ..

لا السائق المحترف ..

ولا الأستاذ ..

لم يكن هناك أدنى أثر ..

* * *

تنحنح مدير المخابرات العامة المصرية فى شىء من التوتر ، وهو يدلف إلى مكتب الرئيس (أنور السادات) ، فى تمام الثامنة صباحًا ، بتوقيت (القاهرة) ، واستقبله الرئيس بلهفة واضحة ، وهو يسأله :

ـ ما الأخبار يا (كمال) ؟!

أجابه مدير المخابرات فى توتر :

ـ لقد عثروا عليه ياسيادة الرئيس .

هتف الرئيس فى فرحة :

ـ حقًا ؟!

استدرك مدير المخابرات فى سرعة :

ـ ولكنهم فقدوا أثره مرة أخرى .

انعقد حاجبا الرئيس فى غضب ، وهو يقول :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط يا (كمال) ؟!

شرح له مدير المخابرات ما حدث فى (نيويورك) ، خلال الساعات القليلة الماضية ، واستمع إليه الرئيس فى ضيق واضح ، وهو يشعل غليونه ، وينفث دخانه فى بطء متوتر ، قبل أن يشير بيده ، متسائلاً :

ـ ألم تبحثوا عن المكان الجديد ، الذى نقلوه إليه ؟!

أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ رجالنا يبذلون قصارى جهدهم ، وينبشون (نيويورك) نبشًا ياسيادة الرئيس .. كل مداخل ومخارج المدينة مراقبة .. حتى حركة الطيران الخاص ، ومسار الزوارق والقوارب .. لن يمكنهم نقله خارج المدينة قط .

لوَّح الرئيس بيده ، قائلاً :

ـ المهم أن يتمّ العثور عليه قبل السابعة مساءً يا (كمال) .

ثم نهض من مقعده ، واتجه إلى النافذة المطلّة على الحديقة ، ونفث دخان غليونه مرة أخرى ، قبل أن يستطرد فى عصبية :

ـ وإلا فسأضطر إلى تجاوز خبر سقوط ذلك الجاسوس الإسرائيلى فى خطابى .

وعاد حاجباه ينعقدان فى غضب ، وهو يضيف :

ـ وهذا لن يروق لى .. لن يروق لى أبدًا يا (كمال) .

التقط مدير المخابرات نفسًا عميقًا ، وهو يجيب :

ـ اطمئن يا سيادة الرئيس .

•

نطقها بلهجة لم تنجح حتى فى إقناعه هو ، فالتفت إليه الرئيس ، وتطلّع إليه لحظة ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ تقول : إن ذلك الشاب ، الذى يعتمد عليه الجزء المهم والعملى من الخطة مصاب .

أجابه المدير فى ثقة :

ـ سيكمل المهمة يا سيادة الرئيس .

كرَّر الرئيس فى حزم :

ـ مصاب بشدة يا (كمال) .

وهنا كرَّر مدير المخابرات بثقة أكبر :

ـ ولكنه سيكمل المهمة يا سيادة الرئيس .

رمقه الرئيس (السادات) بنظرة أخرى ، وهزَّ رأسه فى صمت ، ثم عاد يتطلّع إلى الحديقة ، وعقله يتساءل : ربما استطاع الشاب أن يكمل المهمة بالفعل ..

ولكن هل يمكنه أن يحقق النصر فى نهايتها ؟!

هل ؟!

★ ★ ★

التقى حاجبا (نسيم) فى توتر ، وهو يتابع طبيب مكتب المخابرات المصرى فى (نيويورك) ، وهو يضمد جراح الشاب ، بعد أن انتزع الرصاصات من جسده ، ثم سأله فى شىء من العصبية :

ـ كيف حاله ؟!

هزَّ الطبيب كتفيه ، قائلاً :

ـ إنه قوى البنية ، وأعتقد أنه سيتجاوز هذا .

مطَّ (نسيم) شفتيه ، متمتمًا :

ـ أتعشَّم هذا .

نهض (فاى) جالسًا على طرف الفراش ، والتقط قميصًا نظيفًا ، وراح يرتديه فى صمت ، والطبيب يصف ما ينبغى فعله مع الإصابات ، حتى انتهى من حديثه ، وغادر المكان ، فالتفت (نسيم) إليه ، قائلاً :

ـ بم تشعر الآن ؟!

أجابه الشاب فى اقتضاب :

ـ بالأسى .

لم يكن (نسيم) يتوقَّع هذا الجواب على الإطلاق ، لذا فقد ارتفع حاجباه فى دهشة ، وهو يردِّد :

ـ الأسى ؟!

ضمَّ الشاب قبضته ، قائلاً فى مرارة :

ـ لقد أفلتوا به .

ارتفع حاجبا (نسيم) فى دهشة ، اختفت من ملامحه فى سرعة ، وهو يقول فى حزم :

ـ سنظفر بهم ، ونستعيده بإذن الله .

ثم نهض ، وربَّت على كتف الشاب ، قائلاً :

ـ استرح قليلاً ، ثم ..

قاطعه الشاب فى حزم شديد :

ـ كل دقيقة لها ثمنها يا سيِّدى .

انعقد حاجبا (نسيم) ، وهو يقول :

ـ الطبيب قال : إنه لن يمكنك الاستمرار هكذا .

شرد بصر الشاب ، وقال :

ـ الأستاذ فى خطر .

قال (نسيم) فى حزم :

ـ القتال بهذه الحالة كفيل بقتلك .

صمت الشاب بضع لحظات ، واصل خلالها شروده ، قبل أن يقول :

ـ الحكمة القديمة قالت : مَنْ علَّمنى حرفًا ، صرت له عبدًا .

ثم التفت إلى (نسيم) مضيفًا :

ـ والعبد لا يقيم وزنًا لحياته ، عندما يتعلَّق الأمر بسيِّده .

قال (نسيم) فى حزم :

ـ الحر أيضًا يمكن أن يبذل حياته ، من أجل أستاذه .

نهض الشاب ، والتقط مسدسه الجديد ، ودسَّه فى حزامه ، وهو يجيب :

ـ ولكن العبد لا يمتلك خيارًا آخر .

قالها على نحو أنبأ (نسيم) بأنه سيواصل القتال ..

من أجل أستاذه ..

حتى آخر نفس فى صدره ..

وآخر نقطة دم فى عروقه ..

لحظتها ، وفى واحدة من المرات النادرة فى حياته ، اختلج قلب (نسيم) بين ضلوعه ، وهو يتطلَّع إلى الشاب ..

وفى أعماقه ، شعر بالفخر ؛ لأنه هو أيضًا أستاذ لذلك المقاتل الفذ ..

شعر بكل الفخر ..

★ ★ ★

« هكذا يمكننا أن نؤكِّد أن المصريين قد خسروا معركتهم .. »

نطق (يازوسكى) العبارة فى ظفر ، وابتسامته تملأ وجهه كله ، فتطلَّع إليه (راف) و (دانى) فى حذر ، وغمغم الأخير :

ـ هل تعتقد حقًا أن المصريين لن يمكنهم كشف المخبأ الجديد ؟!

أجابه (يازوسكى) فى سرعة وثقة :

ـ بالتأكيد .

ثم أشعل سيجارته ، ونفث دخانها فى بطء وعمق ، قبل أن يستطرد بثقة أكبر :

ـ ليس فى الوقت المناسب على الأقل .

ثم ألقى نظرة على ساعته ، مضيفًا فى صرامة :

ـ إنها الثانية والنصف صباحًا ، أى التاسعة والنصف بتوقيت (القاهرة) ، وهذا يعنى أن رئيسهم سيلقى خطابه بعد تسع ساعات ونصف من الآن ، أمام مجلس الشعب هناك .

قال (راف) فى توتر :

ـ ألا تبدو لك فترة طويلة للغاية ، بالنسبة لعملية كهذه ؟!

سأله فى شراسة :

ـ ما الذى تلمّح إليه بالضبط ؟!

لوّح (راف) بيده ، قائلاً فى حدة :

ـ من الواضح للأعمى أننا نواجه اثنين من المحترفين ، أحدهما خصم قديم مخضرم لنا ، ندرك إمكانياته جيدًا ، ونعلم أن الصراع معه ليس بالأمر الهيّن أو السهل ، والثانى مقاتل شرس عنيد ، كما وصفه سائقنا المحترف ، وكما تؤكد دماء رجالنا ، التى ترك بحرًا منها خلفه ، والأسوأ أننا نجهل كل شىء عنه ، كما لو أنه قد نبت من العدم ، ولم يكن له وجود من قبل ، على الرغم من كل ما يبديه من قوة وحنكة ومهارة ، وفى ظل هذه الظروف ، تبدو لى الساعات التسع دهرًا لا نهاية له .

مطّ (يازوسكى) شفتيه ، وقال :

ـ تتحدّث كما لو أنهم فى الملعب وحدهم .

قال (راف) فى صرامة :

ـ المفترض أن نراعى كل الاحتمالات .

أجابه (يازوسكى) فى حزم :

ـ ولقد فعلنا .

ثم نهض من مقعده ، وراح يتحرّك فى المكان ، محاولاً إخفاء توتره ، وهو يتابع :

ـ لقد نجحنا فى نقل الأسير من مخبأ توصّلوا إليه ، وهذه

خطوة ناجحة ، وبالغة الأهمية للغاية ، والأكثر نجاحًا وأهمية وخطورة ، هو وضعه فى مكان آخر ، يصعب كشفه والوصول إليه ، فى الوقت المتاح لهم ، وفى هذا السبيل ، أعتقد أننا قد أجدنا اللعبة .

غمغم (دانى) :

ـ طبقًا للقواعد ، كان ينبغى أن ننقله إلى مكان لا يثير الشبهات . ولكن وضعه فى مكتب (هارلم) ، بكل ما يحيط به من حراسة ، أشبه بإعلان صريح ، لا ينقصه إلا النشر فى الصحف .

أدار (يازوسكى) عينيه إليه ، قائلاً فى لهجة عجيبة ، حملت نبرة ساخرة :

ـ أهذا رأيك ؟!

أجابه (دانى) فى عصبية :

ـ أعلم أنك رئيسى يا أدون (يازوسكى) ، ولكن هذا ما تقوله القواعد .

قال (يازوسكى) ، بلهجة أكثر سخرية :

ـ القواعد التقليدية .. أليس كذلك ؟!

انعقد حاجبا (دانى) ، دون أن يجيب ، فى حين قال (راف) فى حذر :

ـ هذا ما تعلمناه .

أجابه فى سرعة وصرامة :

ـ وما تعلَّمه (نسيم) أيضًا ، وما يعرفه كل رجل مخابرات فى العالم ، ويتصوَّر استحالة مخالفته .

ثم فرقع سبَّابته وإبهامه ، مضيفًا :

ـ وهنا تكمن العبقرية .

تبادل (دانى) و (راف) نظرة صامتة ، دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة ، فتابع هو فى حماس :

ـ المصريون يحاصرون (نيويورك) ، منذ اختفى رجلهم للمرة الثانية فى قلبها ، ويدركون جيِّدًا أنه لم يغادرها ، وأنه ما زال فى مكان ما داخلها ، وعلى الرغم من الوقت ، الذى ترياته كبيرًا ، فمن المستحيل عليهم أن يفحصوا كل مكان يحتمل وجوده فيه ، وليس أمامهم سوى التخمين والتفكير والاستنتاج ، وعندما يبدأون هذا ، سيتبعون القواعد المعمول بها فى عالمنا ، وسيدفعهم هذا إلى استبعاد مكتب (هارلم) ، الذى سبق لهم استبعاده بالفعل ، فى فرزهم الأوَّل .

تبادل الرجلان نظرة أخرى متوترة ، قبل أن يتساءل (دانى) :

ـ وماذا لو كشف (نسيم) الأمر ، كما فعل أمس ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ لن يكون الوصول إلى رجلهم سهلاً ، فى ظل الحراسة القوية ، التى نحيط بها مكتبنا فى (هارلم) .

قال (راف) فى سرعة :

ـ وماذا لو نجحوا فى هذا ؟!

انعقد حاجبا (يازوسكى) فى غضب ، فاستدرك فى توتر :

ـ ينبغى أن ندرس كل الاحتمالات .

ازداد انعقاد حاجبى (يازوسكى) ، وهو ينفث دخان سيجارته فى عصبية شديدة ، قبل أن يقول :

ـ فى هذه الحالة ، سنلجأ نحن إلى تنفيذ القواعد التقليدية .

سأله (راف) فى حذر :

ـ أى بند منها ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ ألا يستعيد الخصم رجاله قط .

ـ ثم بدا أشبه بوحش مفترس ، وهو يضيف :

ـ إلا جثث هامدة .

ومرة أخرى ، تبادل (دانى) و (راف) نظرة صامتة .. ولكنهما فهما ما يعنيه رئيسهما هذه المرة .. فهما تمامًا .

★ ★ ★

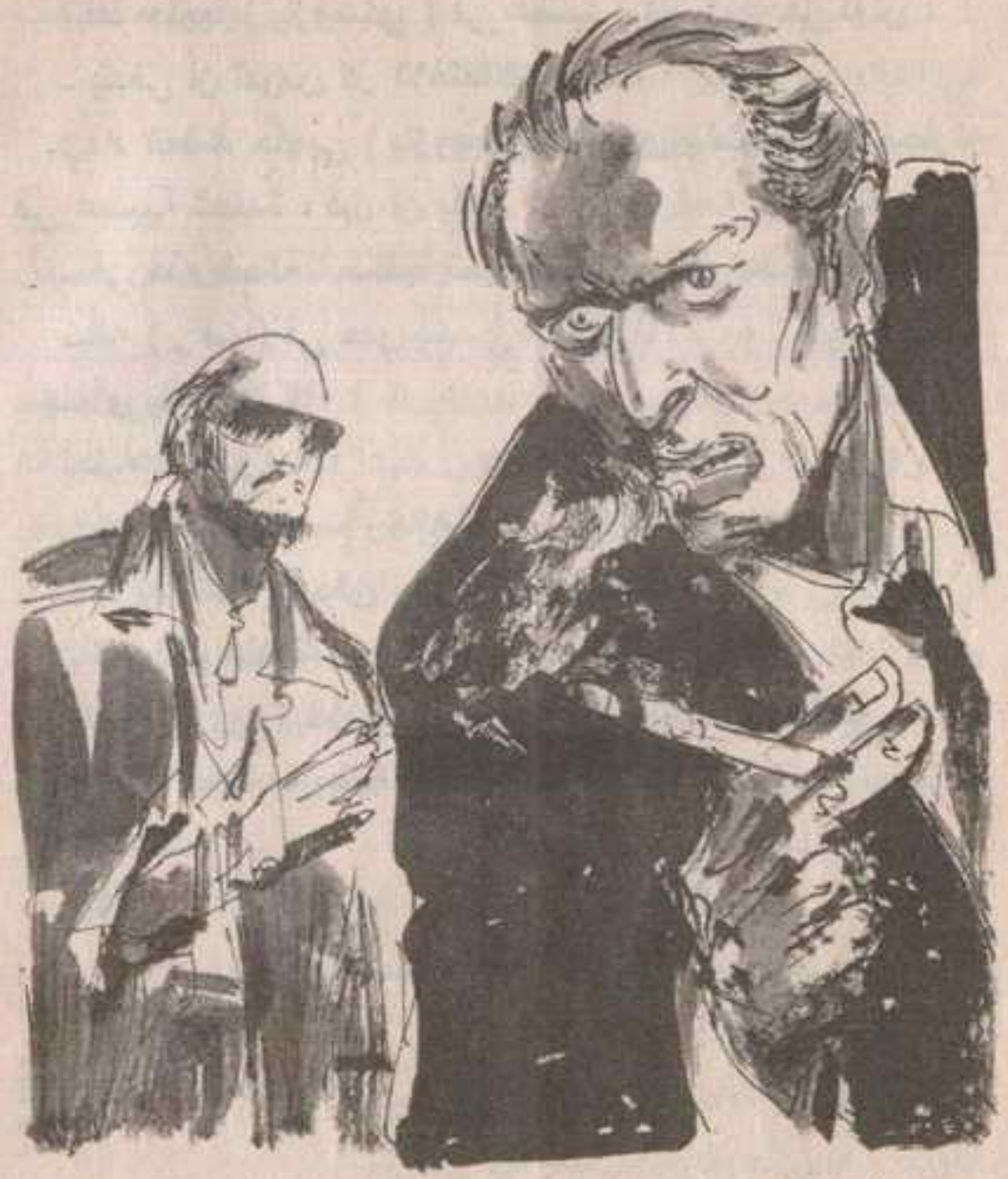

ازداد انعقاد حاجبى (يازوسكى) ، وهو ينفث دخان سيجارته فى عصبية شديدة ..

٨ ـ أسلوبه ..

لاذ الرئيس (السادات) بالصمت التام ، على غير المعتاد ، والصحفى الشهير (موسى صابر) يقرأ على مسامعه تلك الخطبة ، التى سيلقيها فى مجلس الشعب الليلة ، حتى بلغ (موسى) تلك الفقرة ، الخاصة بالجاسوس الإسرائيلى (إيليا) ، فانعقد حاجبا الرئيس ، وأشار بيده فى عصبية ، جعلت الصحفى يسأله فى قلق :

ـ هل ترغب فى أن أعيد صياغة هذه الفقرة يا سيادة الرئيس ؟!

ازداد انعقاد حاجبى الرئيس ، وأشعل غليونه فى صمت ، كعادته كلما أراد منح نفسه مهلة للتفكير ، قبل إجابة سؤال ما ، ثم لم يلبث أن قال فى حزم :

ـ ضعها داخل برواز أحمر فحسب .

بدت الدهشة على وجه الصحفى الشهير ، وهو يتساءل :

ـ ولماذا يا سيادة الرئيس ؟!

بدا له صوت الرئيس عصبيًا ، وهو يجيب :

ـ ليس هذا من شأنك يا (موسى) .. افعل ما أطلبه منك فحسب .

تضاعفت دهشة الصحفى ، وهو يتطلّع إلى الرئيس ، الذى بدا له شديد التوتر ، على غير المعتاد أيضًا ، وأدرك بحسّه

الصحفى أنه وراء الأكمة ما وراءها ، وأنه هناك أمر يتعلّق بأمن الدولة ، خاص بهذه الفقرة ، ولا يريد الرئيس الإفصاح عنه فى الوقت الحالى ..

لذا فقد نهض ، قائلاً :

ـ هل ترغب سيادتكم فى تأجيل الأمر قليلاً ؟!

أشار الرئيس بيده ، قائلاً :

ـ لا بأس يا (موسى) .. لا بأس .

غادر الصحفى المكتب فى سرعة ، ولم يكد يغلق الباب خلفه ، حتى التقط الرئيس سمّاعة هاتف خاص ، يتصل بمدير المخابرات مباشرة ، ولم يكد يسمع صوت هذا الأخير ، حتى سأله فى توتر شديد :

ـ إنها الحادية عشرة صباحًا يا (كمال) .. أين رجالك الآن ؟!

أجابه مدير المخابرات فى توتر مماثل :

ـ ما زالوا يبحثون عن الهدف يا سيادة الرئيس .

صاح الرئيس فى غضب :

ـ ماذا أصابهم يا (كمال) ؟! .. لقد أخبرتنى أنهم أفضل من لديك .. هل سيخذلوننا أم ماذا ؟!

قال مدير المخابرات فى سرعة :

ـ إنه ليس بالأمر السهل يا سيادة الرئيس ، والرجال يبذلون قصارى جهدهم بحق ، ولم يذق أحدهم النوم ، منذ بدأت هذه العملية .

صاح الرئيس :

ـ ومن ذاقه يا (كمال) ؟ هل تتصوّر أننى أستطيع النوم ، وكرامة (مصر) كلها معرّضة للخطر على هذا النحو ؟!

كرّر مدير المخابرات :

ـ الرجال يبذلون قصارى جهدهم يا سيادة الرئيس .

زفر الرئيس (السادات) فى عصبية ، وأغلق عينيه لحظة فى توتر ، قبل أن يقول :

ـ أبلغنى التطورات أوّلاً فأوّل يا (كمال) .

غمغم مدير المخابرات :

ـ دون أدنى شك يا سيادة الرئيس .

أنهى الرئيس المحادثة ، فتراجع مدير المخابرات فى مقعده ، وأغلق عينيه بدوره فى قوة ، وهو يقول لنفسه فى عصبية :

ـ ترى أين أنتم الآن بالضبط يا رجال ؟! أين ؟!

نطقها ، وأعماقه تحمل الكثير من القلق ..

والتوتر ..

والشعور بالخطر ..

بلا حدود ..

★ ★ ★

التقى حاجبا (نسيم) فى شدة ، وهو يمسك سمّاعة الهاتف ، على نحو يوحى إليك بأنه سيعتصرها بين أصابعه ، من شدة الغضب والانفعال ، وهو يقول فى حدة :

ـ ماذا تعنى بأنه لا توجد إشارة واحدة إلى مكانه ؟! .. ربما كان الإسرائيليون بارعون فى هذا المضمار ، ولكنهم ليسوا حواة أو سحرة ، ولن يمكنهم إخفاءه دون أدنى أثر .. هناك أمر ما يشير إلى وجوده حتمًا .. مخالفة مرور .. آثار إطار .. بصمة إصبع ، أو حتى شاهد أعمى .. كل ما خبرته فى حياتى يؤكد أنه هناك دليل أو أثر حتمًا .

واحتقن وجهه ، وهو يستمع إلى محدثه مرة أخرى ، قبل أن يهتف فى غضب :

ـ لا أريد أية أعذار .. الوقت يمضى فى سرعة .. إنها الرابعة والنصف صباحًا ، والرئيس أمامه سبع ساعات ونصف فحسب ، ليلقى خطابه الشهير ، ولا يمكن أن نسمح لهؤلاء الأوغاد بمنعه من إعلان انتصارنا .. هل تفهم ؟!

أنهى المحادثة فى حدة ، فسأله الشاب فى هدوء لا يخلو من الحزم :

ـ ألم يعثروا عليه بعد ؟!

هزَّ (نسيم) رأسه فى عصبية ، وهو يقول :

ـ يبدو أن الإسرائيليين أجادوا اللعبة بشدة هذه المرة .. لقد اختفى (رفعت) داخل (نيويورك) تمامًا ، دون أدنى أثر .

انعقد حاجبا الشاب فى شدة ، وهو يقول :

ـ بالضبط .. هذا ما قلته لرجالنا منذ لحظات .

هزَّ الشاب رأسه هذه المرة ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ كنت أقصد أنه من المستحيل أن نتوقف عند عقبة كهذه .

أجابه (نسيم) فى صرامة :

ـ إننا نبذل قصارى جهدنا .

أشار إليه الشاب ، مجيبًا بنفس الحزم :

ـ بأسلوبكم .

انعقد حاجبا (نسيم) ، وهو يحدق فيه باستنكار ، قائلاً :

ـ ماذا تعنى ؟! إنه أسلوبنا جميعًا .. هذا ما لقنه إياك (رفعت) ، وما ألقنه إياك أنا .

قال الشاب فى سرعة وحزم :

ـ وهناك ما تعلمته ، فى قوات الصاعقة .

ارتفع حاجبا (نسيم) فى دهشة ، فى حين انعقد حاجبا الشاب ، وهو يقول فى عصبية :

ـ أظننى كنت فى قوات الصاعقة .. أليس كذلك ؟!

انطلقت عشرات الأفكار والذكريات العشوائية تعربد فى عقله ، وتنتشر كعاصفة من الثلج فى عروقه ، واتسعت عيناه على نحو عجيب ، وكأنما يرى أمامهما شريطًا متقطعًا لحياة قديمة ..

الصحراء ..

(سيناء) ..

المظلة لم تنفتح ..

لم تنفتح ..
لم تنفتح ..
السقوط ..
ثم امتزجت الصور كلها ..
وارتبكت ..
و ..
« بلى .. »
نطق (نسيم) الجواب ، لينتزعه من بحر ذكرياته المتلاطم بغتة ، فأدار عينيه إليه ، وهتف :
ـ حقًا ؟!
لم يدر (نسيم) حتى هذه اللحظة ، لماذا أجاب سؤال الشاب بالإيجاب ؟!
لماذا أفصح له عن جزء من ذاكرته ، على الرغم من أن كل الأوامر كانت تحتم إخفاء ماضيه تمامًا ، منذ أن ألحقه (رفعت) بخدمة جهاز المخابرات العامة(*)؟!
لماذا ؟!
ربما لأن الموقف كله كان يدفعه إلى هذا ..
أو لأنه شعر ، فى تلك اللحظات بالذات ، أنه من حق الشاب أن يعلم ..

(*) راجع قصة (البعث) ، فى سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ ـ العدد (٢٠)

وأن يدرك شيئًا عن ماضيه ..
وهويته ..
وحقيقته ..
ربما ..
ولقد حدّق الشاب فى وجهه بضع لحظات فى دهشة شاردة ، قبل أن ينعقد حاجباه فى حزم صارم ، وهو يقول :
ـ كنت أعلم هذا .
ثم صمت لحظة ، وأضاف فى صرامة عجيبة :
ـ ولكن هذا لا يهم الآن ، على أية حال .
سأله (نسيم) ، فى لهجة بدت له حذرة أكثر مما ينبغى :
ـ ماذا يهم إذن ؟!
رفع إليه عينين ، حملتا كل حزم وصرامة الدنيا ، أجاب الشاب :
ـ الأستاذ .
قالها ، وانتزع مسدسه من حزامه ، وجذب مشطه ، ثم تركه يرتدّ بذلك الصوت المعدنى ، قبل أن يدسه فى حزامه ، ثم يشدّ قامته فى وقفة عسكرية حازمة ، قائلاً :
ـ سيِّدى .. أطلب الإذن بالانصراف .
سأله (نسيم) فى توتر :
ـ إلى أين ؟! أعنى ماذا تنوى أن تفعل بالضبط ؟!
صمت الشاب بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ سأجرّب أسلوبى يا سيّدى .

ردّد (نسيم) :

ـ أسلوبك ؟!

نطقها بتساؤل خاو ، لم يحمل رنة دهشة أو استنكار ..

تساؤل رجل يعرف ما الذى يتحدّث عنه ..

ولا يحتاج فعليًا لجواب ..

ولثوان ، لم ينبس الشاب ببنت شفة ..

وكذلك معلّمه ..

ثم أشار (نسيم) بيده ، قائلاً بصوت خافت :

ـ اذهب .

اتسعت عينا (طارق) فى دهشة ، وهو ينقل بصره بينهما ، فى حين تألّقت عينا الشاب فى ارتياح ظافر ، وهو يقول فى اقتضاب .

ـ أشكرك يا سيّدى .

ثم اندفع نحو الباب ، فاستوقفه (نسيم) ، قائلاً فى حزم :

ـ ابق على اتصال .

أجابه فى حزم :

ـ دائمًا .

ثم أغلق الباب خلفه ، فى سرعة وخفة ، فهتف (طارق) فى دهشة ، تحمل رائحة الاستنكار :

ـ سيّدى .. هل ستتركه يعمل وحده هكذا ؟!

أجابه (نسيم) فى صرامة :

ـ لقد قمت بتدريبه بنفسى .

هتف (طارق) :

ـ ولكن من الواضح أنه لن يلتزم بما تعلّمه ، وأنه بصدد القيام بمناورة شخصية ، لا أحد يدرى عواقبها بالضبط .

تطلّع (نسيم) بضع لحظات ، إلى الباب الذى انصرف منه (فاى) ، قبل أن يدير عينيه إلى (طارق) ، قائلاً فى حزم :

ـ نفس ما كنت سأفعله ، فى مثل سنه .

واختلج قلبه مع شفتيه ، وهو يضيف :

ـ بالضبط ..

★ ★ ★

مط (درو) شفتيه فى عصبية ، وهو يغادر قسم الشرطة ، بصحبة (دافيد) و (موشى) ، ولم يكد يبلغ سيارتهما ، حتى لوّح بذراعه ، هاتفًا فى حدة :

ـ ماذا دهاكما .. أكان من الضرورى أن أنتظر حتى الخامسة صباحًا ، حتى يتمّ دفع الكفالة وإطلاق سراحى ؟! أنتما تعلمان كم أكره البقاء فى أقسام الشرطة .

قال (موشى) فى صرامة ، وهو يحتلّ مقعد القيادة :

ـ إنها ليست مدينة ملاهٍ يا صاح .. لقد اضطررنا لإيقاظ القاضى (ديلون) من نومه ، وانتزاعه من بين أحضان زوجته ،

صاح مستنكرًا ، وهو يحتلّ المقعد الخلفى مع (دافيد) :

ـ يكلفكم ؟! هل تتحدَّث عن النقود ؟! إننا نجازف بأرواحنا يا هذا ، ثم إن ميزانية عملنا ضخمة كما تعلم ، و ...

قاطعه (موشى) فى غضب :

ـ اصمت يا (درو) ، وإلا أعدتك إلى قسم الشرطة فورًا .

صاح به (درو) فى حدة :

ـ لا تحاول تهديدى يا هذا ، وإلا ..

قبل أن يتمّ عبارته ، أو يضغط (موشى) دوّاسة الوقود ، انفتح الباب المجاور لـ (دافيد) فى حركة حادة ، واندفعت عبره قبضة كالقنبلة ، حطّمت فك هذا الأخير بلكمة مباغتة ، مع صوت صارم يقول :

ـ اترك لى مسألة التهديد هذه .

اندفع (دافيد) إلى اليسار ، مع عنف اللكمة ، وتفجَّرت الدماء ، مع زوج من الأسنان ، من بين شفتيه ، وهو يرتطم بزميله (درو) ، فقفزت يد (موشى) إلى مسدسه المعلّق تحت إبطه بحركة سريعة ، هاتفًا :

ـ الـ ...

قبل أن يكمل هتافه هذا ، كان (فاى) قد اندفع داخل السيارة ، وهوى على أنف (درو) بضربة قوية من مسدسه ، هشَّمت الأنف ، وضربت رأس صاحبه بالزجاج المجاور فى عنف ، قبل أن تتحرَّك فوهة المسدس الباردة فى سرعة مدهشة ، لتلتصق

بمؤخرة عنق (موشى) ، فى قسوة وعنف ، والشاب يقول بالعبرية فى صرامة :

ـ إياك حتى أن تحاول .

تجمَّدت أصابع (موشى) ، على مسدسه ، ورفع عينيه إلى مرآة السيارة ، ليلقى نظرة على وجه الجالس خلفه ، وهو يتمتم بصوت مبحوح :

ـ هو أنت إذن ؟!

كان الشاب يحيط وجهه بقناع بسيط من الصوف ، يبرز عينيه وحدهما ، اللتين أطلَّت منهما مع صوته صرامة مخيفة ، وهو يقول بلهجة آمرة :

ـ انطلق .

قال (موشى) فى عصبية ، وهو يجذب مسدسه فى حذر :

ـ ألا تدرك أننا أمام قسم الشرطة ، و ...

قاطعه الشاب بضربة عنيفة على رأسه ، ثم مال وانتزع مسدسه من بين أصابعه فى قوة ، وألقاه عبر نافذة السيارة ، مكرِّرًا :

ـ انطلق .

كان رأس (موشى) ، وعيناه تختفيان خلف غمامة ألم ذاهلة ، إلا أن تلك الصرامة الشديدة فى صوت الشاب ، جعلته يضغط دوَّاسة الوقود ، وينطلق بالسيَّارة ، وهو يسأل فى عصبية :

ـ إلى أين ؟!

قاطعه الشاب بضربة عنيفة على رأسه ، ثم مال وانتزع مسدسه من بين أصابعه فى قوة ..

أجابه الشاب فى سرعة :

ـ إلى مكتبكم فى (بروكلين) .

قال (موشى) فى دهشة :

ـ ولكنه خال تمامًا الآن ، بعد الـ ..

قاطعه الشاب فى صرامة :

ـ أعلم هذا .

لم يستطع (موشى) استيعاب الأمر ، وهو ينطلق بالسيارة فى عصبية ، وفوهة مسدس الشاب تلتصق بمؤخرة عنقه فى قسوة ..

أما الشاب ، فلم ينطق بحرف واحد طوال الطريق ..

ولا ريب فى أن ألف فكرة وفكرة قد راودته للفرار ..

ولكن فوهة المسدس الباردة ، التى تكاد تنغرس فى مؤخرة عنقه ، كانت تند تلك الأفكار واحدة بعد الأخرى ..

حتى توقَّفت السيارة أمام مكتب (بروكلين) ، فى الخامسة والنصف صباحًا ..

وفى حزم ، غادر الشاب السيارة ، وقال لـ (موشى) فى صرامة :

ـ احمل رفيقك .

سأله الإسرائيلى فى عصبية :

ـ أيهما ؟!

أجابه بنفس الصرامة والاقتضاب .

ـ اختر .

مال (موشى) ليحمل (درو) على كتفيه ..

أو أنه تظاهر بهذا ..

ثم تحرك فجأة ، ودار على عقبيه فى خفة مدهشة ، ارتفعت معها قدمه بركلة قوية ، لتضرب مسدس (فاى) ..

ولكن الشاب كان مدرّبًا بحق ..

وعلى يد اثنين من أعظم الخبراء فى عالم المخابرات ..

(رفعت) ..

و (نسيم) ..

لذا ، فقد تراجع بخفة وسرعة ، ومال برأسه ومسدسه إلى الخلف ، متفاديًا ركلة (موشى) وانقضاضته ..

ثم اندفع إلى الأمام فى رشاقة ، ولَكَمَ الإسرائيلى فى معدته بكل قوته ، على نحو انثنى معه الرجل فى ألم ، قبل أن يتلقّى فكه لكمة كالقنبلة ، ألقته فوق زميليه ، على المقعد الخلفى ..

ولكنه لم يفقد الوعى ..

لقد دار رأسه بعنف فحسب ، وحاول أن ينهض فى صعوبة ، ولكن (فاى) مال نحوه ، وجذبه من رباط عنقه فى قسوة شديدة ، قائلاً :

ـ اسمع أيها الوغد .. الوقت أضيق من أن أضيعه معك .. وأية محاولة تالية سأواجهها بعنف لن يمكنك تصوّره .. هل تفهم ؟!

أومأ (موشى) برأسه إيجابًا ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وهو يلهث فى شدة ، فتراجع الشاب ، قائلاً فى صرامة :

ـ هيا .. احمل أحد رفيقيك .

قاوم (موشى) الدوار الذى يحيط برأسه ، وحمل (درو) على كتفيه ، ووقف إلى جوار السيارة ، يقول فى عصبية :

ـ والآن ماذا ؟!

صوَّب إليه (فاى) مسدسه ، وهو ينحنى ليجذب (دافيد) ثم رفعه بذراع واحدة ليلقيه على كتفه ، على نحو اتسعت له عينا (موشى) فى دهشة ، وجعله يتمتم :

ـ إنك .. إنك ..

قاطعه (فاى) فى صرامة :

ـ هيا بنا .

تقدَّم (موشى) بحمله نحو المبنى ، وهو يقول :

ـ الأمر لن يمضى بهذه البساطة .. هناك حارس للمبنى ، وبوَّابته من زجاج مضاد للرصاص ، و ..

قاطعه فى صرامة شديدة :

ـ اصمت .

انعقد حاجبا (موشى) فى عصبية ، وواصل طريقه حتى البوَّابة ، وأشار من خلف زجاجها إلى الحارس ، الذى نهض من خلف مكتبه ، واتجه نحوه ، و ..

« ربّاه ! .. إنه ليس (جورج) ! »

هتف (موشى) بالعبارة فى ذهول ، وهو يحدِّق فى وجه الشاب ، الذى يرتدى ثياب حارس المبنى ، والذى فتح البوَّابة بابتسامة ساخرة ، قائلاً :

ـ هل أدهشتك رؤيتى أيها الوغد ؟!

حدَّق (موشى) فى وجهه مرة أخرى ، وهو يغمغم :

ـ أين (جورج) ؟!

تبادل الشاب ابتسامة وتحية سريعة بالأصابع مع (فاى) قبل أن يقول :

ـ آه .. أتقصد ذلك الأحمق البدين ، الذى يعمل لحسابكم ؟!.. إنه يرقد فاقد الوعى فى المخزن الخلفى .. ولكن اطمئن .. إنه لن يستعيد وعيه قبل فترة طويلة .

دفع (فاى) (موشى) أمامه فى قسوة ، قائلاً :

ـ تحرَّك .. ليس لدينا الليل بطوله .

اتجهوا جميعًا نحو المصعد ، وقال الشاب ، الذى ينتحل شخصية الحارس ، بابتسامة كبيرة .

ـ بلغ تحياتى للقائد .

أجابه الشاب فى صرامة حازمة :

ـ إنه لا يعلم شيئًا عن هذا .

انتفض جسد الحارس فى عنف ، وهو يهتف فى ذهول :

ـ لا يعلم ماذا ؟!

أشار إليه (فاى) قائلاً وهو يدفع (موشى) بحمله داخل المصعد :

ـ ستفهم كل شىء فيما بعد .

حملهم المصعد إلى الطابق العاشر ، ولم يكد يستقرّ بهم المقام داخل مكتب (الموساد) الخالى ، الذى ما زال يحمل آثار القتال ، ودماء المصابين ، وجثة الكلب الصريع ، حتى قال (فاى) فى صرامة :

ـ قيِّد زميليك وكمِّم فمهما جيِّدًا ، وبمنتهى الإحكام ، فلست أحبهما أن يضيعا وقتنا ، عندما نبدأ حديثنا .

كان الغضب يشتعل فى كل ذرة من كيان (موشى) ، إلا أنه لم يملك سوى طاعة الأمر ، فقيَّد زميليه وكمَّمهما فى إحكام ، قبل أن يلتفت إلى (فاى) ، متسائلاً فى عصبية :

ـ والآن ماذا ؟!

سدَّد إليه الشاب مسدسه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ الآن ستجيب أسئلتى .

قال (موشى) فى حدة :

ـ لن أجيب أية أسئلة .

تجاهل الشاب هذا التعليق ، وهو يسأل بنفس الصرامة :

ـ أين رجلنا ؟!

قال (موشى) فى صرامة مماثلة :

ـ قلت : لن أجيب أية أسئلة .

انعقد حاجبا الشاب ، على نحو مخيف ، وهو يقول :

ـ وأنا أخبرتك من قبل أننى لست مستعدًا لإضاعة لحظة واحدة .. هل تفهم هذا ؛ أم أنك تحتاج إلى توضيح .

قال (موشى) فى سخرية عصبية :

ـ بل أحتاج إلى توضيح كبير ، و ..

قبل أن يتمّ عبارته ، ضغط الشاب زناد مسدسه المزوّد بكاتم للصوت ..

وانطلقت رصاصته ..

وفى ألم ذاهل غاضب مستنكر ، صرخ (موشى) ، عندما اخترقت الرصاصة ذراعه اليسرى ، وتفجّرت معها عاصفة من الدم :

ـ لا ..

ازداد صوت الشاب صرامة وغضبًا ، وهو يقول :

ـ أين الأستاذ ؟!

صاح (موشى) فى غضب :

ـ فلتذهب وأستاذك إلى الجحيم .. إنك لن تحصل منى على حرف واحد ..

ضغط الشاب زناد مسدسه مرة أخرى ..

وانطلقت رصاصة ثانية ، اخترقت فخذ (موشى) هذه المرة ، فصرخ ، وهو يسقط أرضًا :

ـ أيها المصرى الـ ..

جذبه الشاب من قميصه فجأة فى عنف ، فابتلع كلماته مع آلامه ، والتقت عيناه بعينى (فاى) الغاضبتين الصارمتين ، وهو يقول :

ـ اسمع أنت أيها الإسرائيلى الحقير .. لقد اختطفتم أستاذى ، وآذيتم شعبى طويلاً وكثيرًا ، ولقد واجهتكم فى كل ميدان ، وانتصرت عليكم فى كل جولة ، وفى هذه الجولة بالذات ، أصرّ على النصر التام ، دون أية خسائر ، لذا فإما أن تخبرنى أين الأستاذ ، أو لن أتورّع عن تمزيقك إربًا ، قطعة قطعة ، حتى أحصل على الجواب ، أو تهلك دونه ؟!

صاح (موشى) فى حدة :

ـ يا للشجاعة ! أهذا ما تتفاخرون به أيها العرب ؟! أتطلق النار على رجل أعزل .

أجابه الشاب فى صرامة :

ـ أنت بالذات لا تتحدّث عن إطلاق النار على العزل ، يا (موشى) ، فالدماء البريئة ، التى أرقتها فى حياتك ، تكفى لإغراق ملفك كله فى بحر أحمر بغيض .. أرواح النساء والأطفال والشيوخ العزّل، الذين ذبحتهم بلا رحمة ، وعذبتهم حتى الموت، فى سجونكم القذرة ، تصرخ فى كل لحظة مطالبة بالثأر .

وانعقد حاجباه ، على نحو تجمّدت له الدماء فى عروق رجل المخابرات الإسرائيلى ، وهو يضيف :

ـ وهذا ما عاهدت نفسى على فعله ، منذ لمحت وجهك فى هذه العملية .

وارتجف (موشى) ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، عندما أكمل الشاب ، بكل غضب وصرامة الدنيا :

ـ والآن ، للمرة الأخيرة .. أين الأستاذ ؟!

انفرجت شفتا (موشى) ، على نحو يوحى بأنه سيجيب التساؤل هذه المرة ، إلا أن تألقًا مباغتًا فيهما جعل الشاب ينتبه إلى أن شيئًا ما يحدث خلفه ..

شىء ليس فى صالحه ..

أبدًا ..

أضف إلى هذا ذلك الصوت الخافت للغاية ، الذى التقطته أذناه فى اللحظة نفسها ، والذى يوحى بأن بعضهم يتسلل خلفه ، فى خفة وحذر ، و ..

وقفز الشاب من مكانه ..

ودار حول نفسه بسرعة ..

ولكنها لم تكن بالسرعة الكافية ..

فقبل أن تكتمل استدارته ، هوت على رأسه ضربة ..

ضربة عنيفة ..

عنيفة للغاية ، حتى أنه سمع معه صوت شىء يتحطم ..

وفى اللحظة نفسها ، انقضَّ عليه شخص قوى، ضخم الجثة ، مفتول العضلات ..

وكانت الانقضاضة أيضًا عنيفة ..

للغاية .

★ ★ ★

٩ ـ عقل بعقل ..

لنصف ساعة كاملة ، لم يتحرك (نسيم) حركة واحدة، حتى لقد بدا أشبه بتمثال من الرخام، وهو يجلس أمام النافذة الكبيرة ، المطلة على ميدان كبير ، من ميادين (نيويورك) ، وقد انعقد حاجباه ، وبدت عليه علامات التفكير العميق ..

وطوال تلك الفترة ، لم ينبس (طارق) ببنت شفة ، وهو يراقب رجل المخابرات المخضرم ، ثم لم يلبث أن غمغم :

ـ هل توصلت إلى شىء يا سيِّدى ؟!

استدار إليه (نسيم) فى بطء ، وتطلع إليه لحظة ، وكأنما يراه لأوَّل مرة ، ثم لم يلبث أن قال فى شرود :

ـ ليس بعد .

واعتدل مع قوله ، وبدا وكأنه قد نفض شروده كله دفعة واحدة ، وهو يقول فى حزم :

ـ (يازوسكى) ليس غبيًا ، والإسرائيليون لم ينتخبوه لقيادة هذه العملية عبثًا .. إنه واحد من أكبر ثعالبهم وأكثرهم خبرة وحنكة ، وهو يجيد القواعد ، بأفضل مما يجيد معرفة أبنائه .

غمغم (طارق) :

ـ هذا واضح ، بدليل عجزنا عن العثور على السيِّد (رفعت) ، حتى هذه اللحظة .. لقد نجح فى إخفائه بمهارة فائقة .

نهض (نسيم) من مقعده ، واستعاد شروده ، وهو يجوّل فى الحجرة ، قائلاً ، وكأنه يحدّث نفسه :

ـ (رفعت) لم يغادر (نيويورك) منذ تم نقله من مكتب (الموساد) فى (بروكلين) ، و (يازوسكى) لم يغادر مسكنه ، منذ اللحظة نفسها .. إذن فهو واثق تمامًا من أن أسيره فى مكان آمن ، لا يمكن أن يخطر ببالنا قط .. أين هذا المكان إذن ؟! أين ؟!

سأله (طارق) فى حذر :

ـ هل تعتقد أن ذلك الشاب يمكنه التوصّل إليه ؟!

استدار إليه (نسيم) فى حركة حادة ، وانعقد حاجباه فى حزم عجيب ، وهو يقول فى سرعة :

ـ ولِمَ لا ؟!

ألقى (طارق) نظرة على ساعته ، قائلا :

ـ لقد انصرف منذ ما يقرب من الساعة .

قال (نسيم) فى عصبية :

ـ وماذا إذن ؟!

أجابه (طارق) فى سرعة :

ـ ولم يجر أى اتصال بنا بعد .

انعقد حاجبا (نسيم) فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ أنت على حق .

ثم التقط جهاز الاتصال الخاص المحدود ، وهو يكمل :

ـ المفترض أنه يستخدم جهاز الاتصال طوال الوقت .

وضغط الزر ، قائلاً :

ـ من العش إلى الخفاش الليلى.. حدد موقعك وموقفك الآن .. أكرّر .. من العش إلى الخفاش الليلى ..

راح يكرّر النداء مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

ثم خفق قلبه فى عنف ، وهو يكرّره للمرة الخامسة ..

ففى كل المرات ، كان الجهاز يعلن إتمام الاتصال ..

ولكن ما من مجيب ..

على الإطلاق ..

★ ★ ★

« استيقظ يا رجل .. استعد وعيك .. هيا .. »

تسلّل الهتاف إلى أذنى (فاى) ، وسط ظلام عميق ، فأيقظ عقله دفعة واحدة ، وجعله يفتح عينيه عن آخرهما، ويحدّق فى وجه زميله الشاب ، الذى ينتحل هيئة حارس البناية ، قبل أن يعتدل جالسًا فجأة ، وهاتفًا :

ـ أين أنا ؟! ماذا حدث ؟!

تراجع زميله فى توتر ، وهو يشير بيديه لما حوله ، قائلاً :

ـ أخبرنى أنت ماذا حدث ؟!

أدار الشاب عينيه فيما حوله ، قبل أن ينعقد حاجباه فى شدة ، وهو يلقى على نفسه السؤال ذاته ..

ماذا حدث ؟!

فعلى بعد أمتار قليلة منه ، كان (موشى) ملقى على وجهه ، والدماء تنزف من ثقب فى رأسه ، وعند قدميه سقط رجل ضخم الجثة ، مفتول العضلات ، وقد تهشَّم أنفه على نحو بشع ، وأغرق وجهه كله بالدم ..

وفى المواجهة ، كان (درو) و (دافيد) ما زالا مقيدين ومكممين على مقعدين متجاورين ..

وفى لحظة واحدة ، وقبل حتى أن يكتمل المشهد ، استعاد الشاب ما حدث دفعه واحدة ..

وبكل التفاصيل ..

فمع الضربة التى تلقَّاها على رأسه ، والتى حطَّمت جهاز الاتصال ، انقضّ عليه (موشى) ، صارخًا :

ـ خسرت أيها المصرى .

ومع انقضاضته ، هاجم ذلك الضخم أيضًا ، وهوى بلكمة قوية على فك الشاب ..

كان رأسه يدور فى عنف ..

وكانت عيناه تميزان ما أمامهما فى صعوبة ، مع الغشاوة التى تحجبهما ..

ولكن غريزته كانت تعمل بكفاءة ..

غريزة المقاتل ..

المحترف ..

فدون وعى تقريبًا ، انحنى متفاديًا لكمة الضخم ، ورفع ساعده يتلقَى ضربة (موشى) ، الذى راح يصرخ :

ـ اقتله يا (بارى) .. اقتله .

مال الشاب جانبًا ، ودار على عقبيه ، ليلكم الضخم فى معدته بكل قوته ، ولكن (موشى) تعلق بعنقه ، صارخًا :

ـ لن تفلت أيها المصرى .

كان القتال غير متكافئ على الإطلاق ، وخاصة عندما انتزع الضخم من حزامه مسدسًا قويًا ، وصوَّبه إليه ، هاتفًا :

ـ إنها محطته الأخيرة .

التقطت عيناه فوهة المسدس ..

ورصد عقله تلك الوحشية الشرسة ، المطلَّة من عينى خصمه ..

وتحرَّك جسده ..

وانطلقت غريزة المقاتل فى أعماقه ..

وفى سرعة ، انحنى إلى الأمام ، وحمل (موشى) على ظهره ، ثم ألقاه نحو ذلك الضخم بكل قوته ..

وفى اللحظة نفسها ، انطلقت الرصاصة ..

وجحظت عينا (موشى) ..

ثم سقط جثة هامدة ..

واتسعت عينا الضخم ، وهو يهتف :

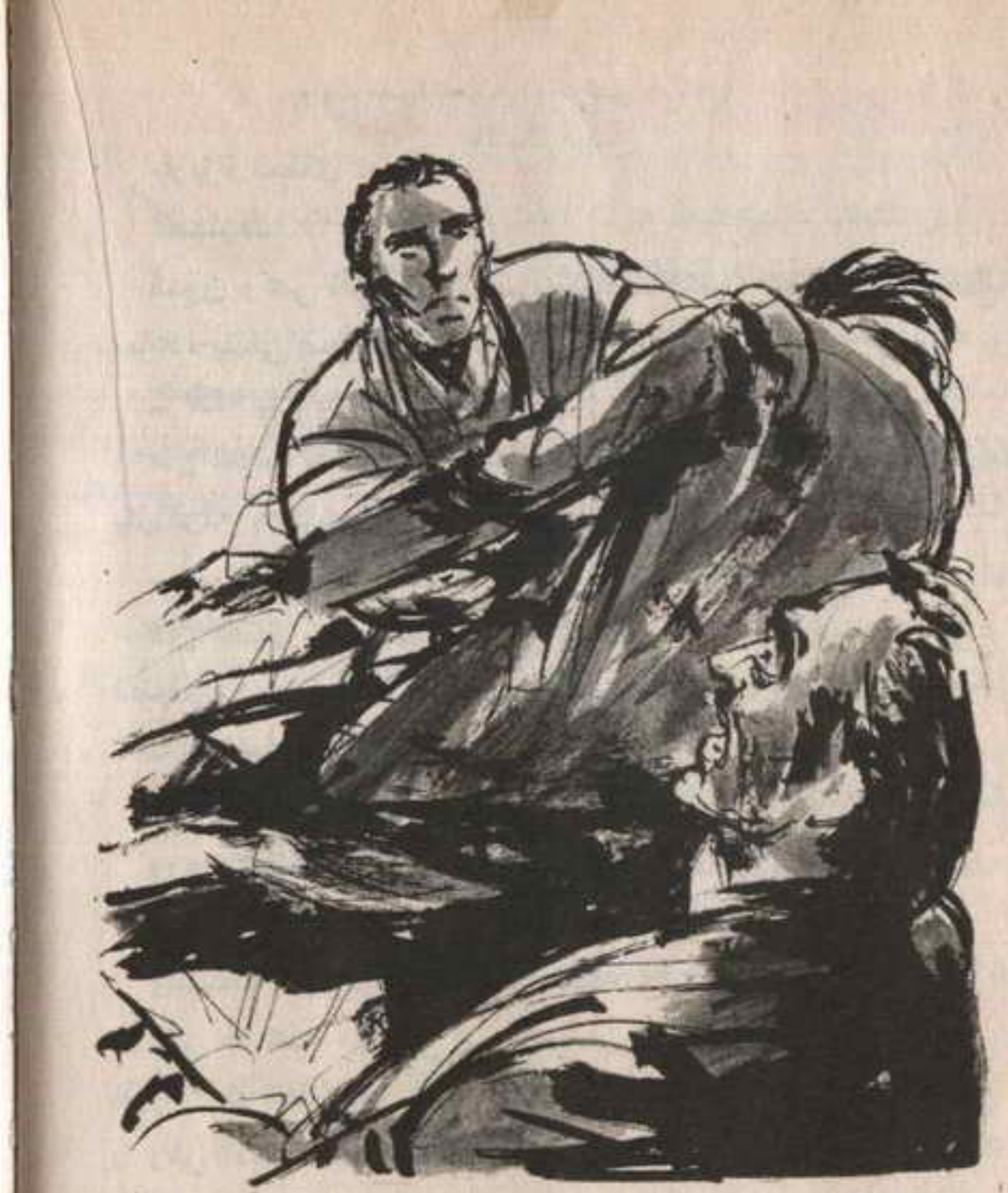

وفى سرعة ، انحنى إلى الأمام ، وحمل (موشى) على ظهره ، ثم ألقاه نحو ذلك الضخم بكل قوته ..

ـ لا .. (موشى) .. مستحيل !

لم تكن كلماته قد اكتملت بعد ، عندما تحرك الشاب ، بكل ما تبقى له من قوة ووعى ، ووثب وثبة مدهشة ، دار خلالها حول نفسه ، ثم ركل الضخم ركلة كالقنبلة ، فى أنفه مباشرة ، أطاحت به ، ليسقط إلى جوار جثة (موشى) ..

وعندئذ ..

عندئذ فقط ، نفدت قوى الشاب عن آخرها ..

وهوى ..

و ..

« كم الساعة الآن ؟! »

ألقى الشاب سؤاله ، فى لهجة أقرب إلى الفزع ، وهو يهب من مكانه ، فاجأ به زميله فى توتر :

ـ إنها السادسة والنصف .. لقد تأخرت كثيرًا وهذا ما دفعنى للصعود ، و ..

قاطعه الشاب بصيحة هادرة :

ـ السادسة والنصف ؟! يا إلهى ! لقد أضعت وقتًا ثمينًا .

قال زميله فى دهشة :

ـ أضعت ماذا ؟! لقد كنت فاقد الوعى يا صاح .

هتف به :

ـ هذا لا يعنى أحدًا .. مهما كانت المبررات ، فقد أضعنا وقتًا ثمينًا .

ثم أدار عينيه فيما حوله ، قبل أن يهتف بلهجة آمرة :

ـ أحضر بعض الماء البارد .

تحرّك زميله لتلبية مطلبه ، وهو يسأله فى قلق :

ـ ماذا ستفعل ؟!

انحنى هو يجذب الضخم ، مجيبًا :

ـ سأوقظ هذا الوغد .

كانت دفقة المياه المثلجة كافية ، لينتفض الضخم فى عنف ، ثم يطلق شهقة مختنقة ، وهو يفتح عينيه عن آخرهما ، ويحدّق فى وجهى الرجلين ، قبل أن يقول فى خشونة عصبية :

ـ من أنتما ؟!

أجابت فوهة المسدس الباردة ، الملتصقة بعنقه سؤاله ، وأنعشت ذاكرته ، وهو يحدّق فى جثة (موشى) ، الملقاة على مسافة متر واحد منه ، فهتف :

ـ إنكما مصريان .

أجابه (فاى) فى صرامة :

ـ هذا صحيح أيها العبقرى .. والآن ، وبعد أن تعارفنا ، أريد منك أن تجيب سؤالاً مباشرًا .

ثم مال نحوه ، وتطلّع إلى عينيه مباشرة ، وهو يسأل :

ـ أين الأستاذ ؟!

ازدرد الضخم لعابه فى صعوبة ، وهو يقول بصوت مبحوح :

ـ أى أستاذ ؟!

جذب رجل المخابرات مشط مسدسه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ يبدو أنه يحتاج إلى عقار ينعش ذاكرته ، ولدى هنا نوع خاص منه ، من عيار تسعة ملليمترات .. يلوح لى أننى سأضطر لحقنه به .

اتسعت عينا الضخم ، وهو يهتف :

ـ لا .. أرجوك .. لا ..

ثم سقط على ركبتيه ، وبدا مظهره عجيبًا ، وهو يتوسّل :

ـ سأخبركما بكل ما تريدانه ، ولكن لا تقتلانى .. أرجوكما .. أ ...

وفجأة ، بتر عبارته ، وانقضّ على رجل المخابرات المصرى ، وتعلّق بعنقه ، وهو يطلق ضحكة وحشية مجلجلة ، صارخًا :

ـ خدعتكما أيها المصريين .

جحظت عينا رجل المخابرات المصرى ، والأصابع الفولاذية تنغرس فى عنقه ، فى حين وثب الشاب نحو الإسرائيلى الضخم ، وهوى على مؤخرة عنقه بلكمة كالقنبلة ، هاتفًا :

ـ اتركه أيها الوغد .. اتركه ..

ولكن الأصابع الضخمة انغرست فى عنق رجل المخابرات أكثر .. وأكثر ..

وأكثر ..

وبكل قوته ، جمع (فاى) قبضتيه ، وهوى بهما على مؤخرة عنق الضخم ، الذى أطلق خوارًا كالثور ..

ثم سقط ..

وسقط معه رجل المخابرات ..

وفى سرعة وارتياع ، انحنى (فاى) يفحص زميله ، الذى جحظت عيناه عن آخرهما ، ثم عضَ شفتيه فى أسى ومرارة ، وهو يسبل الجفنين المتورمين ، قبل أن يستدير والغضب يعصف بنفسه ، ومشاعره كلها تشتعل فى عنف ، وجذب الضخم الفاقد الوعى من سترته فى حدة ، وكاد يطلق النار على رأسه ، ثأرًا لزميله القتيل ، و..

ولكن صرخة من عقله أوقفته ..

وجمَّدت أصابعه على زناد مسدسه ..

ولثوان ، ظلَ يحدِّق فى الإسرائيلى الضخم ، فى صمت تام ..

ثم برزت فى ذهنه فكرة جديدة ..

ومفيدة ..

للغاية ..

* * *

تحرَّك مدير المخابرات المصرى بخطوات واسعة سريعة ، عبر حديقة منزل الرئيس (السادات) ، الذى بدا شديد التوتر والعصبية ، وهو ينفث دخان غليونه ، على مقعده المفضَّل بالحديقة ، ولم يكد يلمح مدير المخابرات ، حتى سأله فى لهفة :

ـ ما موقف رجالك يا (كمال) ؟!

هزَّ مدير المخابرات رأسه فى توتر ، وهو يجيب :

ـ ليس جيِّدًا يا سيادة الرئيس .

انعقد حاجبا الرئيس (السادات) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ هل خذلنا رجالك يا (كمال) ؟!

صمت مدير المخابرات بضع لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ لو أن هذا حدث ، فلن يكون بإرادتهم يا سيادة الرئيس .

هزَّ الرئيس رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ وما الفارق ؟!

ثم نهض من مقعده فى حدة ، مستطردًا :

ـ لقد خسرنا فى كل الأحوال .

قال مدير المخابرات فى حزم :

ـ ليس بعد يا سيادة الرئيس .. إنها الرابعة والنصف الآن ، وخطاب سيادتكم فى السابعة ، وما زالت أمامنا ساعتان ونصف الساعة ، و..

قاطعه الرئيس فى غضب :

ـ وماذا يا (كمال) ؟! لقد عجزوا عن تنفيذ المهمة طول كل الوقت الماضى ، فما الذى يدعونا للاعتقاد فى أنهم سينجحون فى هذا ، خلال ساعتين ونصف فحسب ؟!

أجاب مدير المخابرات فى حزم :

ـ الذى يدعونا إلى هذا هو أن كلينا مقاتل سابق يا سيادة الرئيس ، ويعلم جيِّدًا أن المعارك قد تنقلب رأسًا على عقب ، فى لحظاتها الأخيرة .

صمت الرئيس بضع دقائق ، نفث خلالها دخان غليونه فى بطء ، قبل أن يغمغم :

ـ أنت على حق .

وصمت لحظة أخرى ، ثم سأل بلهجة قوية واثقة ، وكأنما استعاد حماسه كله دفعة واحدة :

ـ ما الموقف بالضبط هناك ؟!

شدّ مدير المخابرات قامته ، وهو يجيب :

ـ الإسرائيليون نقلوا (رفعت) إلى مكان مجهول ، ولقد خرج (فاى) للبحث عنه ، ولكنه اختفى ، وانقطع الاتصال به تمامًا ، حتى أن (نسيم) قد خرج للبحث عنه ، و ..

قاطعه الرئيس فى صرامة :

ـ للبحث عنه أم عن (رفعت) :

أجابه مدير المخابرات :

ـ إنه يعتقد أن الهدفين لهما سبيل واحد يا سيادة الرئيس .

صمت الرئيس لحظة ، قبل أن يقول :

ـ ربما .

ثم ألقى نظرة على ساعته ، وأضاف فى حزم :

ـ ليس أمامنا إذن سوى الانتظار .. والدعاء .

وعاد ينفث دخان غليونه ..

فى عمق ..

* *

انتفض الإسرائيلى الضخم فى عنف ، وفتح عينيه عن آخرهما ، وحدّق فى جثتى (موشى) ورجل المخابرات المصرى ، قبل أن يخترق أذنيه صوت (دافيد) وهو يهتف :

ـ (بارى) .. استيقظ يا رجل ..

أدار عينيه إلى (دافيد) و (درو) ، المقيدين إلى مقعديهما ، ولاحظ أن الأوّل قد أزاح كمامته عن فمه ، وهو يكمل فى عصبية :

ـ هيا يا ر جل .. أسرع .. حل قيودنا .. هيا .

نهض (بارى) فى سرعة ، وأسرع يحل قيودهما فسأله (درو) فى حدة :

ـ مَنْ قتل (موشى) ؟!

انعقد حاجبا (بارى) لحظة ، قبل أن يجيب فى عصبية :

ـ ذلك المصرى حتمًا .

ثم استدرك ، فى شىء من الزهو :

ـ ولكننى قتلت زميله .

حدّقا فى جثة رجل المخابرات المصرى ، قبل أن يلقى (دافيد) نظرة سريعة على ساعته ، ويهتف :

ـ إنها التاسعة وخمسون دقيقة .. لقد أضعنا وقتًا طويلاً بالفعل .

قال (درو) فى عصبية ، وهو يتلفّت حوله :

ـ ترى أين ذلك المصرى ؟!

أجابه (بارى) فى توتر :

ـ من المؤكّد أنه قد رحل ، ليواصل بحثه عن رجلهم .

غمغم (درو) :

ـ بالتأكيد .

ثم أشار بيده ، وهو يندفع نحو الهاتف ، مستطردًا :

ـ ولابد وأن نشرح لأدون (يازوسكى) كل ما حدث .

ضرب أزرار الهاتف فى سرعة متوترة ، ولم يكد يسمع صوت رئيسه ، حتى قال فى انفعال :

ـ أدون (يازوسكى) .. أنا (درو) .

هتف به (يازوسكى) فى غضب :

ـ أين أنت يا (درو) ؟! إننا نبحث عنكم منذ ساعات .

أجابه (درو) فى سرعة :

ـ لقد حدثت تطورات كثيرة يا أدون (يازوسكى) .

انعقد حاجبا (يازوسكى) فى شدة ، وهو يستمع إلى ما يرويه (درو) ، واحتقن وجهه كثيرًا ، مع ذلك الغضب ، الذى تصاعد فى أعماقه ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ ماذا تعنى بأنه قد اختفى ؟! ليس من المنطقى أن يفعل هذا .. لقد بذل ذلك المصرى كل الجهد ، حتى يظفر بكم ، ولن ينسحب بهذه البساطة ، وخاصة بعد أن لقى زميله حتفه .

قال (درو) فى انفعال :

ـ ربما عرف شيئًا من (بارى) ، وانطلق إليكم فى (هارلم) ، و ..

قاطعه (يازوسكى) فى حدة :

ـ أيها الغبى .

احتقن وجه (درو) ، وهو يقول فى توتر :

ـ ماذا فعلت ؟!

أجابه فى غضب هادر :

ـ نطقت بما لا ينبغى أن تنطق به .

ثم استطرد فى صرامة آمرة :

ـ أغلق الهاتف ، وغادر مكتب (بروكلين) فورًا ، مع (دافيد) و (بارى) .

سأله (درو) فى حذر :

ـ هل نأتى إليك فى ..

قاطعه فى حدة غاضبة :

ـ إياك أن تكرِّرها أيها الغبى .

احتقن وجه (درو) أكثر ، وهو يغمغم :

ـ كما تأمر يا أدون (يازوسكى) .. كما تأمر .

وأنهى المحادثة ، وهو يلتفت إلى زميليه ، قائلاً فى عصبية :

ـ إنه غاضب للغاية ، حتى أننى لست أدرى ما ..

قبل أن يتمّ عبارته ، صدرت قرقعة مباغتة ، من السقف المزدوج فوقه ، فرفع رأسه إليه ، و ..

وهوت عليه صاعقة ..

صاعقة تحمل اسمًا لا مثيل له ، فى عالم البشر ..

اسم (فاى) ..

وفى نفس اللحظة ، التى سقط فيها (درو) فاقد الوعى ، سحب (دافيد) و (بارى) مسدسيهما فى سرعة ، وصاح الأول :

ـ ياللـ ..

وقبل أن تكتمل صيحته ، انقضّ الشاب ..

واشتعل الأمر كله ..

بعنف ..

* * *

بدا (يازوسكى) شديد العصبية ، وهو يتحرّك فى مكتبه ، فى غضب هادر ، حتى أن مساعده قد سأله فى توتر :

ـ ماذا هناك يا أدون (يازوسكى) .. إننى لم أشاهدك عصبيًا إلى هذا الحد قط .

لوّح (يازوسكى) بيده ، قائلاً :

ذلك المصرى المجهول ليس غبيًا أو أحمقًا .. هذا ما أثبته قتاله السريع العنيف معنا ، وهذا يعنى أنه لن يُفقد (بارى) وعيه ، ويستعيد السيطرة الكاملة على الموقف ، ثم يترك كل شىء وينصرف هكذا فجأة ، دون مبرّرات .

سأله مساعده فى حذر :

ـ ما الذى سيفعله إذن ؟!

لوّح بيده ، مجيبًا :

ـ أى شىء ، إلا الانصراف .

قالها ، وانعقد حاجباه فى تفكير متوتر عميق ، استغرق بعض الوقت ، قبل أن يكرّر فى عصبية :

ـ أى شىء .

ثم رفع عيناه إلى مساعده ، قائلاً فى صرامة :

ـ اتخذ الإجراءات اللازمة ، لذهابى إلى (هارلم) فورًا .

هتف مساعده فى دهشة مستنكرة :

ـ (هارلم) ؟! ولكن ..

قاطعه (يازوسكى) فى صرامة :

ـ لا تقل (لكن) .. نفذ الأمر فحسب .

ولكن مساعده لم يلتزم بالأمر ، وهو يلوّح بيده ، هاتفًا :

ـ الأمر ليس بهذه البساطة يا أدون (يازوسكى) .. المصريون يراقبون كل تحركاتنا بعيون الصقور(*) ، ومهما اتخذنا من احتياطات ، فإنهم سيتبعونك ، وسيكشفون مخبأ رجلهم .

انعقد حاجبا (يازوسكى) وهو يقول فى صرامة :

ـ هذا لو أنهم أكثر ذكاءً .

(*) الصقر : طائر جارح ، ينتشر فى كل أنحاء العالم، يتبع العائلة الصقرية ، ومنها العقاب ، والحدأة ، وغيرها ، والصقور الأصيلة تمتاز بأجنحتها الطويلة ، ومناقيرها المعقوفة الحادة من أعلى ، وهى تفتك بالطيور والثدييات الصغيرة والحشرات ، والصقور تمتاز أيضا بحدة بصرها وقوة ملاحظتها .

قال مساعده فى عصبية :

ـ لا يوجد ما يوحى بأنهم أقل ذكاءً .

ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يقول :

ـ سنرى .

هزَّ المساعد رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ معذرة يا أدون (يازوسكى) ، ولكن الوقت لا يسمح بتجارب من هذا النوع .. إنها العاشرة صباحًا هنا .. أى الخامسة مساءً بتوقيت (القاهرة) ، وهذا يعنى أن (السادات) سيلقى خطبته بعد ساعتين من الآن ، ولو أن المصريين ..

قاطعه (يازوسكى) فى غضب :

ـ إياك أن تكرِّرها .

ثم راح يتحرك فى الحجرة ، مضيفًا فى حدة :

ـ إننى لست ساذجًا غريرًا ، لأقع فى خطأ كهذا .. سنرتب الأمر بحيث يبدو وكأننى أتفقَّد كل مكاتبنا.. وفى مكتب (هارلم) ، حيث نحتفظ بالمصرى ، سينتظرنى (فيدو) ، فى حلة تشبه حلتى تمامًا ، وهكذا سأدخل أنا ، ويخرج هو ليواصل تفقُّد المكاتب ، ولأنه يشبهنى إلى حد مدهش ، بعد الجراحة التى أجريت له ، فى المهمة السابقة ، فسيتصوَّر المصريون أنه أنا ، و ...

قاطعه المساعد هذه المرة فى حماس :

ـ فهمت .

انعقد حاجبا (يازوسكى) فى غضب ، مع هذه المقاطعة ، إلا أن مساعده لم ينتبه إلى غضبه ، مع انفعاله الجارف ، وهو يهتف :

ـ إنك عبقرى بالفعل يا أدون (يازوسكى) .

أثلجت العبارة صدر الإسرائيلى ، وأنسته عدم لياقة مساعده ، فغمغم فى صرامة مزهوة :

ـ لم تأت بجديد .

هتف المساعد :

ـ إذن فالمصريون لن يربحوا هذه المعركة قط .

ازداد انعقاد حاجبى (يازوسكى) على نحو مخيف ، وهو يجيب :

ـ على جثتى .

نطقها بكل الصرامة ..

والشراسة ..

والغضب ..

★ ★ ★

ـ تطلَّع (نسيم) عبر منظاره المقرَّب ، من داخل سيارة المخابرات المصرية المؤمَّنة إلى شبيه (يازوسكى) ، الذى أولاه ظهره ، وهو يغادر سيارة هذا الأخير ، ويدلف إلى مكتب (مانهاتن) فى خطوات مسرعة ، قبل أن يختفى داخل المبنى ، وخلفه رجال الحراسة الخاصة ، التابعين لبديله الأصلى ، فخفض

(نسيم) المنظار عن عينيه ، وهو يغمغم فى حيرة متوترة :

ـ ماذا يفعل هذا الوغد بالضبط ؟!

أجابه (طارق) ، فى توتر مماثل :

ـ لست أدرى .. لقد زار كل مكاتبهم تقريبًا !! ربما يتفقَّد سير الأمور ، أو ..

قاطعه (نسيم) فى حزم :

ـ مستحيل !

ثم عاد يرفع المنظار إلى عينيه ، مستطردًا :

ـ (يازوسكى) أبرع وأذكى من أن يفعل هذا ، فى الساعات الحاسمة هذه .

وهزَّ رأسه ، مضيفًا فى شرود ، يوحى بأنه غارق فى تفكير عميق :

ـ إنه يحاول تشتيت انتباهنا لسبب ما .

غمغم (طارق) :

ـ ربما لإضاعة الوقت فحسب .

عاد (نسيم) يهزّ رأسه ، مغمغمًا :

ـ كلاَّ .. هناك سبب آخر .

نطقها ، وراح يعتصر عقله ..

ويعتصره ..

ويعتصره ..

فالأمر بالنسبة إليه ، لم يعد مجرَّد مهمة ينبغى إنجازها ..

لقد صار صراعًا شخصيًا ..

صراع بين عقل ..

وعقل ..

★ ★ ★

لم يعد الاتصال بالمعلم (نسيم) ممكنًا ..

بل ولم يكن هناك حتى وقت لهذا ..

فما إن تشرق الشمس ، حتى تتحوَّل (نيويورك) إلى غابة من الوحوش الآلية ، تجرى على إطارات من المطاط ..

ويصبح السير فيها ، والانتقال عبرها ، من مكان إلى آخر ، عملية شاقة للغاية ..

وبطيئة إلى أقصى حد ..

والمسافة بين (بروكلين) و (هارلم) ليست بالقصيرة ..

والوقت يمضى بسرعة ..

لذا فقد تحرَّك الشاب ، دون أن يعلن موقفه ، وحمل سلاحه ، متجهًا نحو مكتب (هارلم) مباشرة ..

لقد نجحت خطته ، عندما اختبأ فى السقف المزدوج ، ليستمع إلى الإسرائيليين ، عندما يستعيدون وعيهم ..

ومنهم عرف أين (رفعت) ..

أين الأستاذ ..

كل ما تبقَّى ، هو أن يصل إليه ..

وأن يبذل حياته فى سبيل إنقاذه ..

وبأقصى سرعة ..

وها هو ذا الآن يقترب من الهدف ..

ويقترب ..

ويقترب ..

ولكن الزمن أيضًا يمضى ..

ويمضى ..

ويمضى ..

والزحام رهيب ، على نحو لم يشهد مثيلاً له ، حتى فى (القاهرة) ، التى يصفها البعض بأنها أكثر مدن العالم ازدحامًا ..

وفى معصمه ، أشارت ساعته إلى العاشرة وعشرين دقيقة ..

عليه إذن أن يتحرَّك بسرعة أكبر ..

مهما كان الثمن ..

لذا فقد غادر الشاب سيارة الأجرة التى يستقلّها ، واستدعى خريطة (نيويورك) ، التى يحتفظ بها فى ذاكرته ، وانطلق يعدو بكل قوته ، على الرغم من ساقه اليسرى المصابة ، التى تفجَّرت منها الدماء ثانية ، وراحت تغمر سرواله على نحو مخيف ..

كان الألم رهيبًا ..

إلا أنه لم يتوقَّف لحظة واحدة ..

حتى بلغ (هارلم) ..

ومع دخوله حى الزنوج غير الرسمى ، استدارت الأنظار كلها إليه ، فى فضول متحفِّز متوتر ، وتعلَّقت الأبصار ببقعة الدم الكبيرة فى سرواله ..

ولكنه لم يبال ..

وبسرعة ، تجاوز الشارع الرئيسى بالحى الزنجى ، ودلف إلى شارع جانبى ضيق ، واتجه مباشرة إلى سلم خلفى لمبنى قديم ، و ...

« إلى أين يا صاح ؟! »

قاطعه صوت صارم سوقى ، فالتفت إلى مصدره بحركة سريعة ، ووقع بصره على ثلاثة من الزنوج الأقوياء يحمل اثنان منهم مسدسين قويين ، فى حين يلهو الثالث بهراوة ثقيلة ، ذات أطراف حادة ، وهو يتابع فى سخرية شرسة :

ـ هل أخبرك أحدهم أن هذا ممر عام ؟!

قال الشاب فى صرامة :

ـ ابتعدوا عن طريقى .. ليست لدى دقيقة أضيعها معكم .

تبادل الثلاثة نظرة استخفاف ساخرة ، قبل أن يتقدَّموا منه ، وكبيرهم يلوِّح بهراوته الثقيلة ، قائلاً :

ـ من الواضح أنك تجهل أين أنت بالضبط يا هذا .. وتجهل تمامًا من نحن بالضبط .. ولكن لا بأس .. سنغفر لك جهلك هذا ، مقابل أن تعطينا حافظة نقودك وساعتك ، و ..

قبل أن يتمّ الزنجى الضخم عبارته ، وثب (فاى) فجأة فى الهواء ، وركله فى أنفه ركلة كالقنبلة ، أطاحت به ثلاثة أمتار إلى الخلف ، ليرتطم بالجدار بمنتهى العنف ، ويسقط على وجهه كالحجر ، وهراوته الثقيلة تطير فى الهواء ..

وفى نفس اللحظة ، التى اتسعت فيها عينا الآخرين ذهولاً ، كان الشاب يقفز ليلتقط الهراوة ، ثم يهوى بها على رأس أحدهما ، قبل أن يدور حول نفسه ، ويركل الثانى فى معدته ، ثم يلكمه فى فكه لكمة ساحقة ، أسقطته أرضًا ، دون أن ينبس حتى بآهة ألم ..

ولم ينتظر الشاب ليرى ما أسفر عنه قتاله ..

لقد ترك الزنوج الثلاثة يسقطون خلفه ، وقفز هو يتعلّق بالسلم الخلفى للمبنى ، ويتسلّقه فى سرعة وخفة ..

ومن سطح ذلك المبنى ، راح يقفز إلى سطح ثانٍ ..

وثالث ..

ورابع ..

وعندما بلغ أخيرًا مبنى يجاور ذلك الذى يحوى مكتب (الموساد) ، كانت عقارب ساعته تشير إلى الحادية عشرة إلا عشر دقائق بالتحديد ..

وهنا توقّف الشاب ، وهو يلهث بشدة ، من فرط الجهد والانفعال ، وراح يراقب سطح المبنى المجاور ، بمنتهى الحذر ، وهو يلتقط أنفاسه رويدًا رويدًا ..

كان من الواضح أن الإسرائيليين يحيطون المبنى بحراسة مكثّفة ..

أربعة رجال مسلحون بالمدافع الآلية ، على السطح وحده ..

فما أدراك كم منهم بالداخل ؟!

لقد ترك الزنوج الثلاثة يسقطون خلفه ، وقفز هو يتعلّق بالسلم الخلفى للمبنى ، راح يقفز إلى سطح ثانٍ ..

ولكن هذا لن يوقفه ..
حراس الدنيا كلهم لن ينجحوا فى إيقافه ..
هذا لأنها ليست مهمة عادية ..
إنه يقاتل من أجله ..
من أجل الأستاذ ..
لم يكد اللقب يتردَّد فى أعماقه ، حتى اشتعلت عروقه كلها بالقوة والحماس ، والتهبت مشاعره عن آخرها ، وانطلقت فى أعماقه صرخة ..
صرخة لم يسمعها سواه ..
ولكنها تردَّدت فى كل ذرة من كيانه ..
وجعلته يثب كالليث إلى السطح المجاور .
سطح مبنى مكتب (الموساد) فى (هارلم) ..
ومع هبوطه فوقه ، استدارت فوهات المدافع الآلية الأربعة إليه ..
وانطلقت الرصاصات .

* * *

١٠ ـ اللحظات الأخيرة ..

التقط الرئيس (السادات) نفسًا عميقًا ، فى توتر بالغ ، وهو يرتدى ثيابه ، فى حجرته الخاصة ، وانعقد حاجباه على نحو لم يرق لزوجته ، التى سألته فى قلق :
ـ ماذا هناك ؟! ألا ترغب فى إلقاء خطبتك هذه ؟!
مطَّ الرئيس شفتيه ، وهو يجيب :
ـ ليست مشكلة أن أرغب أو لا أرغب .. المهم ما الذى سيمكننى أو لا يمكننى قوله فيها ؟
بدت عليها الدهشة ، وهى تسأله :
ـ ألم يراجعها معك (موسى) ؟!
أجاب فى ضيق :
ـ بلى ، ولكن ..
لم يتمّ عبارته ، فأدركت هى بحدسها أنه هناك ما يقلق باله ، ولا يمكنه الإفصاح عنه ، مما جعلها تميل على أذنه هامسة فى حنان :
ـ كل شىء سيسير على ما يرام بإذن اللّه .
تنهَّد الرئيس ، مغمغمًا :
ـ أتعشَّم هذا يا (جيهان) .. أتعشَّم هذا .
ثم ألقى نظرة على ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى السادسة وسبع دقائق ، بتوقيت (القاهرة) ، قبل أن يستطرد :

ـ وإن كنت أشك فى هذا .

تضاعف قلقها ، وهى تعدّل من هندامه ، ثم لم تلبث أن ربّتت على كتفه فى حنان ، وهى تسأله :

ـ هل ستذهب إلى المجلس مباشرة ؟!

هزّ رأسه ، مجيبًا :

ـ كلاّ .. سأقوم بافتتاح قاعة احتفالات جديدة للقوات المسلحة أولاً .

غمغمت :

ـ وفقك الله .

غادرها الرئيس ، واستقل سيارته الرسمية ، التى انطلقت وسط موكبه ، وكبير ياورانه يقول :

ـ السيد وزير الدفاع ينتظر فى قاعة الاحتفالات يا سيادة الرئيس ، وأعضاء مجلس الشعب بالكامل فى انتظار سيادتكم ، و ...

بتر عبارته لحظة ، عندما بدا له أن الرئيس لا يستمع إليه بانتباه ، ثم تنحنح مغمغمًا فى قلق :

ـ سيادة الرئيس .. هل أواصل ؟!

خُيّل إليه أن الرئيس لم ينتبه إلى ما قاله ، وهو يشير بيده إشارة صامتة ، فتنحنح مرة أخرى ، وعاد يواصل حديثه ..

أما الرئيس (السادات) ، فلم يكن بالفعل يستمع إليه .. لقد كان عقله شاردًا هناك ..

بعيدًا ..

للغاية ..

★ ★ ★

أوّل ما أدركه الشاب ، وهو يثب إلى سطح مبنى مكتب (الموساد) فى (هارلم) ، هو أنه من الضرورى أن تنتهى العملية بأقصى سرعة ..

ودون أن تجذب انتباه أى مخلوق بأسفل ..

وهذا يعنى مواجهة أربعة مدافع آلية بمسدس واحد ، مزوّد بكاتم للصوت ..

لذا ، فقد وثب الشاب إلى السطح ، وهو يطلق رصاصات مسدسه بالفعل ..

وفى نفس اللحظة ، التى استقرّ فيها جسده على السطح ، كانت رصاصات مسدسه الصامتة قد أطاحت بأحد الإسرائيليين الأربعة بالفعل ..

وقبل أن يضغط الثلاثة الآخرون أزندة مدافعهم ، كان هو يثب إلى الأمام ، ويطلق ثلاث رصاصات سريعة ، وهو يدور حول نفسه بخفة وسرعة مدهشتين بالغتين ..

هو نفسه لم يدر كيف تحرك بهذه السرعة ..

ولا كيف أطلق رصاصاته بهذا الإحكام ، وهو يثب هكذا ..

ولكنه فعلها ..

الإسرائيليون الثلاثة سقطوا على ظهورهم جثثًا هامدة ، دون أن يدرك أحدهم حتى ماذا أصابه ..

ولم يضع الشاب لحظة واحدة ..

لقد التقط أحد مدافعهم الآلية ، واتجه مباشرة نحو المدخل الرئيسى لأنابيب التهوية ، وهو يستعيد خرائط المكاتب الإسرائيلية فى (نيويورك) ، والتى لقنه إياها (نسيم) ، ودرَّبه على التوغل فيها شبرًا فشبر ..

وفى خفة ، انزلق عبر أنبوب التهوية الرئيسى ، حتى بلغ شبكة التهوية الأفقية للطابق السادس ، حيث مكتب (الموساد) وراح يزحف عبرها فى سرعة ، وقد بدا له أن الوقت يمضى كالصاروخ ..

الحادية عشرة وعشر دقائق ..

وخمس عشرة دقيقة ..

عشرون دقيقة ..

خمس وعشرون ..

وها هو ذا أخيرًا ، داخل شبكة التهوية ، فى سقف المكتب مباشرة ..

وفى حذر ، اقترب من فتحة التهوية ، وأذناه ترهفان السمع ، وعقله يعمل بمنتهى السرعة ..

كان الهدوء يخيِّم على المكان إلى حد عجيب ، إلا من وقع أقدام تتحرَّك هنا وهناك ، مع رائحة تبغ ، توحى بأن أحدهم أو بعضهم يدخن سيجارته فى شراهة ..

وفى حذر زائد ، ألقى الشاب نظرة عبر الشبكة المعدنية لفتحة التهوية ..

وعندئذ لمح هدفه ..

الأستاذ ..

رأى (رفعت) فى وضوح ، مقيَّد إلى مقعد ضخم ، وقد تم تكميم فمه فى إحكام ، وحوله يجلس ثلاثة من الحراس ضخام الجثة ، وكل منهم يحمل مدفعًا آليًا من طراز حديث قوى ..

وبسرعة ، درس الشاب الموقف ..

وحدَّد مواقع خصومه ..

ولاحظ الأسلاك الكهربية ، المتصلة بشبكة فتحة التهوية ..

وأدرك أن الشبكة ستصعقه ، لو أنه لمسها بجسده ..

لذا فقد تراجع فى سرعة ، حتى بلغ منطقة واسعة ، أدار جسده عندها ، ليضع قدميه فى المقدمة ، ثم دفعه إلى الأمام ، عبر أنبوبة التهوية ، حتى بلغ الشبكة المكهربة ..

وبكل قوته ، هوى على الشبكة بحذائه الثقيل ، ذى النعل المطاطى العازل للكهرباء ، ثم دفع نفسه إلى الأمام فى عنف ..

وفى لحظة واحدة تقريبًا ، طارت شبكة فتحة التهوية ، ووثب جسده داخل الحجرة ..

وبسرعة البرق ، استدار إليه الإسرائيليون الثلاثة ..

وبأقصى سرعته ، اعتدل هو ليواجههم ..

وانطلقت رصاصاته ..

ورصاصاتهم ..

أصابت إحدى رصاصاته رأس أحدهم ، وأطاحت به فى عنف ، واخترقت رصاصته الثانية عنق آخر ، فجحظت عيناه ، وأطلق شهقة قوية ، وهو يسقط على وجهه كالحجر ..

ثم شعر برصاصة تخترق معدته ، وتنتزعه من مكانه ، وتضرب به الجدار فى عنف ، قبل أن تنطلق رصاصة أخرى ، من مدفع الإسرائيلى الثالث ، وتغوص فى الجانب الأيمن من صدره ..

كانت الآلام مبرحة ، والدماء تنزف من إصاباته كلها ..

حتى السابقة منها ..

ومذاق الدم يملأ حلقه ، ويتسلل إلى أنفه برائحة عجيبة ..

ولكنه تحرك بسرعة مدهشة ..

وارتفعت فوهة مسدسه ثانية ..

وانطلقت رصاصاته ..

وارتدّ جسد الإسرائيلى فى عنف ، وارتطم بالمقعد الذى قيَّدوا إليه (رفعت) ، قبل أن يسقط أرضًا جثة هامدة ..

واتسعت عينا (رفعت) عن آخرهما ، وهو يحدق فى الشاب ، الذى غرق جسده كله تقريبًا فى دماء ساخنة ، تتدفق من جراحه ، وأنفه وفمه ، وهو يقترب منه مترنحًا ، ومغمغمًا فى ارتياح عجيب :

ـ أخيرًا يا سيِّد (رفعت) .

همهم (رفعت) بكلمات مبهمة ، من خلف كمامته ، فأسرع الشاب يحلها ، وهو يقول فى سعادة ، لم تتفق قط مع نهر الدم المتدفق منه :

ـ كل شىء سينتهى على ما يرام .. المهم أننا قد عثرنا عليك ، و ..

كانت الكمامة قد ارتفعت عن فم (رفعت) ، فصاح بكل قوته وتوتره :

ـ أسرع بالفرار يا هذا .. إنه فخ .

لم يكد ينطقها ، حتى برز (يازوسكى) فى المكان ، وقد انعقد حاجباه فى غضب صارم ، وحوله خمسة من رجاله ، يصوبون مدافعهم الآلية كلها إلى هدف واحد ..

إلى (فاى) ..

★ ★ ★

ارتفعت أبواق السيارات ، المميِّزة لموكب الرئيس ، فى شارع مجلس الشعب ، واصطف الناس على الجانبين ، يلوحون للرئيس فى سعادة ، وهو يجيب تحيتهم بابتسامة كبيرة ، لا تشف قط عن ذلك التوتر الجارف ، المستعر فى أعماقه ، حتى بلغ المجلس ، فغادر سيارته فى وقار ، وحافظ على ابتسامته الواثقة ، وهو يدلف إلى المكان ..

واستقبله رئيس مجلس الشعب بالترحاب ، وقاده مع مرافقيه

إلى الاستراحة الخاصة بالمكان ، وألقى نظرة على ساعته ، قائلاً بابتسامة كبيرة :

ـ السابعة إلا عشر دقائق يا سيادة الرئيس .. ما زال لدينا بعض الوقت لقدح من القهوة ، قبل أن تلقى خطابك .

أشار الرئيس بيده ، قائلاً :

ـ فلنستبدله بكوب من عصير الليمون .

هتف رئيس مجلس الشعب :

ـ بالتأكيد يا سيادة الرئيس .. بالتأكيد .

لم تمض دقيقة واحدة ، حتى وصل عصير الليمون ، وراح الرئيس (السادات) يرتشفه فى بطء شديد ، وكأنما يؤجِّل مرحلة المواجهة ، وعقله يتساءل :

تُرى هل انتهت هذه العملية بالفشل ؟!

هل خسر رجاله جولتهم ، لأوَّل مرة ؟!

وهل هناك أمل فى أن ..

لم يكتمل تساؤله الأخير ، مع صوت رئيس المجلس ، وهو يقول بنفس الابتسامة الكبيرة :

ـ السابعة تمامًا يا سيادة الرئيس .

مطَّ الرئيس شفتيه ، وكتم مشاعر المرارة فى أعماقه ، وهو ينهض ، قائلاً بصوت قوى ، لا ينقل قط ما يعتمل فى نفسه :

ـ لا يمكننا أن ندع الشعب ينتظر .

وفى خطوات ثابتة قوية ، اتجه الرئيس إلى منصة المجلس ،

وسط عاصفة من التصفيق ، ووقف يشير بيديه لنواب الشعب فى القاعة ، وللشعب كله ، الذى يتابعه للمرة الأولى ، على شاشات التليفزيون الملوَّنة ، التى بدأت عملها منذ أيام قلائل ..

الكل شاهد ابتسامته القوية الواثقة ..

ولكن واحدًا فقط من المشاهدين ، كان يدرك ما الذى يختفى خلف تلك الابتسامة ...

هذا لأنه يشاركه مشاعر الإحباط والمرارة ، وهو يجلس فى مكتبه ، داخل مبنى المخابرات العامة المصرية ، وأمامه لافتة صغيرة ، تحمل صفة المدير العام ..

فكلاهما ، الرئيس ومدير المخابرات العامة ، كان يدرك أن الفقرة الخاصة بإلقاء القبض على الجاسوس الإسرائيلى (إيليا) قد تم حذفها ..

وإلى أجل غير مسمى ..

★ ★ ★

كل فوهات المدافع الآلية كانت مصوَّبة إلى الشاب ..

كلها بلا استثناء ..

ومن خلفها ، تألَّقت عينا (يازوسكى) ، وهو يقول :

ـ دعنى أعترف ببراعتك وعبقريتك أيها الشاب ، على الرغم من أننى لم أر وجهك هذا من قبل قط .. لقد تصرَّفت بحنكة مدهشة طوال الوقت .

ثم أشار إلى صدره ، مستطردًا فى حدة مباغتة :

ـ ولكنك لم تتفوق على حنكتى وعبقريتى قط .

حاول الشاب أن يرفع فوهة مدفعه الآلى ، أو حتى مسدسه ، ولكن ثلاثة من الإسرائيليين الأقوياء انقضوا عليه ، وهوى كل منهم على جسده بكعب مدفعه ، وخاصة على مواضع إصاباته ، فسقط أرضًا ، وكتم تأوهاته فى بسالة ، فهزّ (يازوسكى) رأسه ، وقال فى حنق :

ـ غبى ككل بنى وطنك .. تأوّه يا رجل .. اصرخ .. ابك .. لا تكتم مشاعرك على هذا النحو .

أجابه (رفعت) فى صرامة :

ـ لن يفعلها ، حتى لو مزّقته أربًا يا (يازوسكى) .

رمقه الإسرائيلى بنظرة صارمة ، وجلس على أقرب مقعد إليه ، وهو يقول :

ـ الكل يفعلها ، إن عاجلاً أو آجلاً يا سيّد (رفعت) .

أجاب (رفعت) بصرامة أكثر :

ـ إلا هو .

انعقد حاجبا (يازوسكى) ، وهو يسأله :

ـ ومن هو ؟! ما اسمه ؟!

ابتسم (رفعت) ، قائلاً :

ـ لن تعرف أبدًا .

بدا الغضب على وجه (يازوسكى) ، وهو يقول :

ـ هل تتصوّر أن هذا يعنينى ؟! لقد أردت فقط معرفة الاسم ، الذى سيتم نقشه على قبره .

ثم استلّ مسدسه ، وصوّبه إلى رأس (فاى) ، مستطردًا فى شراسة :

ـ عندما أطلق النار على رأسه .

قال (رفعت) فى حنق :

ـ هل ستطلق النار على رجل أعزل ؟!

هتف (يازوسكى) فى لهجة تجمع بين الغضب والسخرية :

ـ رجل ماذا ؟!

قالها ، وانفجر ضاحكًا فى سخرية ، حتى دمعت عيناه ، فمسحهما بكمه ، وهو يقول :

ـ إننى أفضّل العزل ، منذ نعومة أظفارى يا هذا .

وجذب إبرة مسدسه ، مستطردًا بشراسة أكبر :

ـ كما سترى الآن .

صاح (رفعت) فى غضب ملتاع :

ـ أيها الوغد .

قهقه (يازوسكى) ضاحكًا مرة أخرى ، وهو يصوّب فوهة مسدسه إلى رأس الشاب مباشرة ، و ..

وفجأة تحرّك (فاى) ..

كانت الدماء تغمر جسده كله تقريبًا ، ورئته المثقوبة تجعل أنفاسه ضيقة ، ممتزجة بطعم ورائحة الدم ، وضلوعه المكسورة من ضربات كعوب مدافع الإسرائيليين تنغرس فى لحمه ..

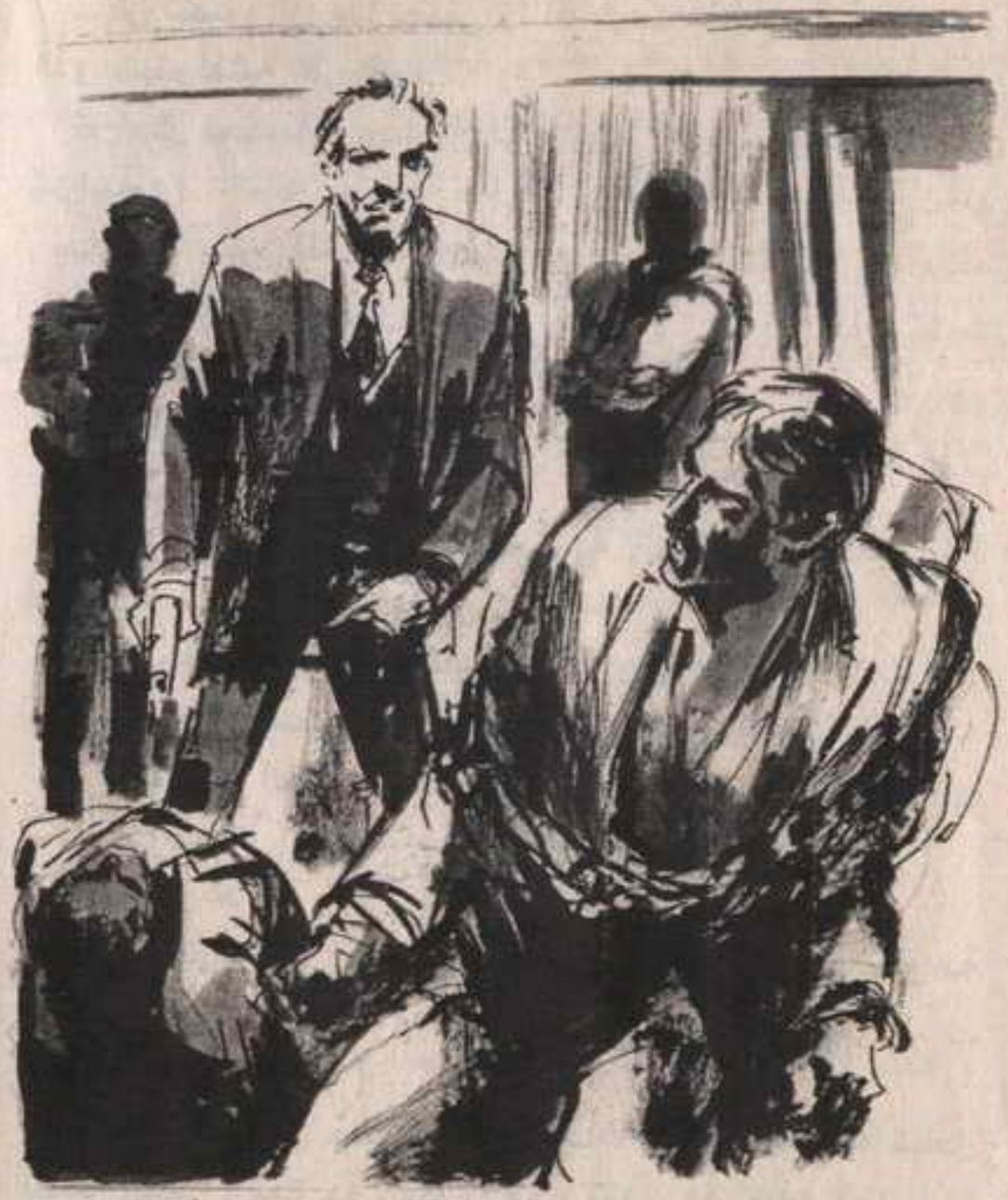

قهقه (يازوسكى) ضاحكًا مرة أخرى ، وهو يصوِّب فوهة مسدسه إلى رأس الشاب مباشرة ، و... وفجأة تحرك (فاى) ! ...

ولكنه وثب كالليث ..

وأحاط عنق (يازوسكى) بساعده ..

واستل بيده الأخرى خنجرًا ، من جراب فى ساقه ، ووضعه على عنق هذا الأخير ، وهو يقول فى صرامة :

ـ الغبى فقط هو من يتعجَّل النتائج أيها الوغد .

كانت مفاجأة مدهشة للجميع ، حتى إن الإسرائيليين الخمسة تجمَّدوا فى أماكنهم ، وهم يحدقون فى ذلك المشهد ، فى حين هتف (يازوسكى) ذاهلاً :

ـ مستحيل !

صاح به الشاب فى صرامة ، على الرغم من الدوار العنيف ، الذى يسيطر على كيانه كله :

ـ أطلق سراح الأستاذ .

هتف (يازوسكى) :

ـ مستحيل .

غرس الشاب جزءًا من نصل الخنجر فى عنقه ، هاتفًا :

ـ قلت : أطلق سراحه .

ولكن (يازوسكى) هتف بغضب هادر :

ـ لن تحصل عليها أبدًا أيها المصرى .

ثم صاح برجاله :

ـ أمهلوه خمس ثوان فحسب ، ثم أطلقوا النار على أسيرنا ، لو لم يستسلم هو أيضًا .

تحرّك الرجال بسرعة ، وارتفعت فوهات مدافعهم الآلية نحو (رفعت) ، فقال (فاى) فى صرامة :

ـ لو أصابوا شعرة واحدة منه ، سأجزّ عنقك بلا رحمة .

أجابه (يازوسكى) فى غضب هادر :

ـ الموت أهون من الفشل .

توترت كل ذرة فى أعماق الشاب ، عندما أدرك بغريزته أن (يازوسكى) يعنى بالفعل كل حرف نطق به ..

وأنه لن يتردّد لحظة فى قتل الأستاذ ..

وبلا أدنى رحمة ..

لو أن هذا يعنى الظفر والنجاح ..

حتى ولو كان الثمن هو حياته نفسها ..

وكان هذا يعنى أنه ما من أمل ..

إلا إذا ..

« معذرة يا (يازوسكى) ، ولكن الرياح لا تأتى دومًا بما تشتهى السفن .. »

اتسعت عينا (يازوسكى) عن آخرهما ، عندما ارتفعت هذه العبارة فى المكان ، فى حين هتف (فاى) فى انبهار :

ـ السيِّد (نسيم) .

وتألّقت عينا (رفعت) فى سعادة ، عندما شاهد (نسيم) يقتحم المكان ، مع عشرة من رجال المخابرات المصرية ، أحاطوا برجال (الموساد) ، وصوّبوا إليهم مدافعهم الآلية ،

فألقى الإسرائيليون أسلحتهم على الفور ، ورفعوا أيديهم فوق رءوسهم ، و (يازوسكى) يهتف ذاهلاً :

ـ ولكن كيف ؟!

أشار (نسيم) إلى رأسه ، مجيبًا :

ـ كانت لعبة عقل أمام عقل يا رجل .. أنت خطّطت لتخدعنا ، ونحن كشفنا خدعتك فى الوقت المناسب .. لقد كنت تلعب اللعبة نفسها طوال الوقت .. أوراق مكشوفة للغاية ، إلى الحد الذى تبدو فيه وكأنها مجرّد خدعة .. لقد أحسنت قلب القواعد أيها الوغد ، ولكننا كشفنا لعبتك .

قال (يازوسكى) فى حدة :

ـ ربما أيها المصرى ، ولكن ليس فى الوقت المناسب .

ثم دفع (فاى) ، ونهض عن مقعده ، وأشار إلى ساعة الحائط ، مستطردًا فى عصبية :

ـ إنها الثانية عشرة وخمس دقائق .. لقد بدأ رئيسكم خطابه بالفعل ، ولم يعد من الممكن أن يتراجع عنه ، ثم ..

بتر عبارته ، ووثب بغتة نحو (رفعت) ، وجذبه من شعره فى قسوة ، ثم استل مسدسًا صغيرًا مخفيًا فى حزامه ، وألصق فوهته بصدغ رجل المخابرات المصرى ، مستطردًا فى شراسة :

ـ ثم إنكم لم تستعيدوا رجلكم حيًا بعد .

صاح به (نسيم) فى غضب .

ـ إياك أن تمسّ شعرة واحدة منه يا (يازوسكى) .. أعده إلينا وإلا ..

صرخ (يازوسكى) فى غضب هادر ، وهو يجذب إبرة مسدسه :

ـ على جثتى .

دار (فاى) حول نفسه فى سرعة ، هاتفًا :

ـ اتفقنا .

وانطلق خنجره يشقّ الهواء ، لينغرس فى صدر (يازوسكى) فى عنف ..

فى موضع القلب تمامًا .

وتراجع الإسرائيلى فى عنف وحدة ، وجحظت عيناه عن آخرهما ، وسقط مسدسه الصغير من يده ، وهو يهتف :

ـ مستحيل !

ثم هوى جثة هامدة ..

وبابتسامة شاحبة متهالكة كصوته وجسده ، تمتم (فاى) ، وهو يرسم بسبّابته فى الهواء شكلاً بيضاويًا ، يقطعه خط مائل :

ـ فعلناها يا سيّدى .

ثم هوى فاقد الوعى ..

وبكل ذعره ولوعته ، هتف (نسيم) برجاله ، وهو يندفع نحو الشاب :

ـ استدعوا سيارة إسعاف .. أسرعوا بالله عليكم ..

انطلق هتافه ، وهو يحاول إيقاف الدماء المتدفقة من جسد الشاب ..

الدماء التى رسمت حوله دائرة من الدم ..

دائرة تشبه رمزًا رياضيًا ، يشير إلى كم مجهول ..

رمز (فاى) ..

★ ★ ★

على الرغم من أن صوت الرئيس (السادات) ظلّ قويًا حازمًا ، وهو يلقى خطابه أمام مجلس الشعب ، وعلى مسامع الشعب المصرى كله ، إلا أن توتره الداخلى ظلّ يتضاعف ويتضاعف ، كلما اقترب من تلك الفقرة ، المحاطة بإطار أحمر ، والتى تشير إلى نجاح المخابرات العامة المصرية فى الإيقاع بضابط المخابرات الإسرائيلى (إيليا) ، بكل ما يحمله هذا من عار وفضيحة لجهاز (الموساد) الإسرائيلى ، ومن تحطيم لغروره وغطرسته ، وإثبات لخطأ دعاياته المبالغة ، التى يصوّر بها مخابراته كفريق من الآلهة ، غير قابل للفشل أبدًا ..

كان يشعر بمرارة شديدة ، لأن الإسرائيليين يجبرونه على كتمان نصر كهذا ..

صحيح أن معظم انتصارات أجهزة المخابرات تندرج تحت بند السرية المطلقة ..

ولكن الضرورات الأمنية والسياسية تحتم التباهى بهذه الانتصارات ، فى بعض الأحيان ..

وها هى ذى فقرة الانتصار تقترب ..

وتقترب ..

و ..

« سيادة الرئيس .. »

همس رئيس مجلس الشعب بالكلمة ، وهو يصعد إلى المنصة ، ويقترب من الرئيس ، الذى توقّف عن حديثه ، وأدار بصره إليه فى تساؤل صارم ، فناوله الرجل ورقة مطوية ، وهو يشير فى صمت إلى نهاية المنصة ، فأدار الرئيس بصره إلى حيث يشير ، وتألّقت عيناه ، عندما وقع بصره على وجه مدير المخابرات العامة ، وهو يحمل على وجهه ابتسامة هادئة واثقة ، جعلت الرئيس يفض تلك الورقة المطوية ، التى أرسلها إليه ، ليقرأ فيها كلمات موجزة للغاية :

ـ تهانئى .. النسر عاد إلى العش بنجاح .

ومرة أخرى ، تألّقت عينا الرئيس ، وهو يدس الورقة فى جيبه ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ظافرة كبيرة ، وهو يواصل خطابه ، ويواجه شعبه كله ، قائلاً بصوت قوى :

ـ أنتهز فرصة خطابى هذا ، لأزف إلى شعبنا كله ، ولكافة الشعوب العربية بشرى خاصة ، تثبت أننا لم نتفوّق على الإسرائيليين ، ونحطّم غرورهم وغطرستهم فى حرب أكتوبر وعلى رمال (سيناء) فحسب ، وإنما ما زلنا نكسر أنوفهم ، ونسحق غرورهم ، فى كل مجال آخر .. وبالتحديد فى حرب العقل والذكاء .. حرب المخابرات العامة .

جذب حديثه انتباه الجميع ، فأرهفوا آذانهم وقلوبهم ، ليستمعوا إلى ما مهّد إليه الرئيس ، الذى ارتسمت على شفتيه ابتسامة أكثر ظفرًا وثقة ..

ابتسامة تحمل كل سعادته وثقته ، فى أن رجاله قد نفذوا المهمة التى أوكلها إليهم ..

وأنهم قد استعادوا الأستاذ ..

واستعادوا معه الكرامة المصرية والعربية ..

وبمنتهى النجاح .

★ ★ ★

[تمّت بحمد الله]

★ ★ ★

٢ ـ البخيل وأنا

(أبو دياب شرق) ..

اسم أثار فى نفسى خوفًا مبهمًا ، كلما ردَّدته فى أعماقى ، وأنا أعدّ حقيبتى الوحيدة ، استعدادًا للانتقال من سطح الصعيد إلى أعماقه ..

ولست أدرى لماذا انطبع فى ذهنى اسم (أبو دياب) هذا بوجه صارم ، لقاتل صعيدى محترف ، ضخم الجثة ، كث الشارب ، معقود الحاجبين ، يحمل (البندجة) .. أقصد البندقية ، ليلبد بها فى حقول الذرة ، و (يطخ) الرائح والغادى ..

ربَّما كان هذا مجرَّد بقايا أو ترسبات قديمة ، من مسلسل تليفزيونى رأيته فى طفولتى، أو بعض الرسوم الكاريكاتورية، التى كان يبدعها العمالقة آنذاك ، أمثال (صلاح جاهين) ، و(الليثى) رحمهما الله ، والفنان (حجازى) وغيره (أبقاهم الله) ..

المهم أننى لم أستطع إغماض عينىّ لحظة واحدة طوال الليل ، متصوِّرًا أن (أبو دياب) إياه سيفطّ من أسفل فراشى بغتة ، فى مركز التدريب ، صارخًا :

ـ اثبت يا ولد ..

ثم يطخنى عيارين ..

وفى كل مرة كنت أقفز من نومى صارخًا :

ـ (أبو دياب) .. (أبو دياب) ..

ولكن كل الشهود أجمعوا على أننى لم أحدّد ما إذا كان (أبو دياب شرق) ، أم (أبو دياب غرب) ، ولكن الأرجح أنه كان (أبو دياب شمال شرق) ..

المهم أننى استيقظت فى اليوم التالى بوجه شاحب ، وعيون منتفخة ، وقلب ينبض ألف نبضة فى الدقيقة ، لأكشف أنه لن يتم توزيعنا مباشرة ، ولكن علينا أن نستكمل بعض الأوراق فى مديرية الشئون الصحية أولاً ..

وهنا قفزت إلى ذهنى فكرة مجنونة ..

لماذا لا أنتهز الفرصة ، وأذهب لرؤية قرية (أبو دياب شرق) هذه ؟!

وسيطرت علىَّ الفكرة ، حتى إن كل ذرة فى كيانى صارت تتلهَّف إلى رؤية ذلك المكان ، الذى سأقضى فيه عامًا على الأقل ..

وما إن أخبرنا الأستاذ (شوقى) أن الأوراق تحتاج إلى يوم آخر لاستكمالها ، حتى هرعت من فورى إلى موقف سيارات الأجرة ، لأسأل :

ـ كيف أذهب إلى (أبو دياب شرق) وحياة والدك ؟!

ولأن الشهامة متأصّلة للغاية فى إخواننا الصعايدة ، فلم تمض ربع الساعة ، حتى كان أحدهم ينزلنى من سيارته (دون أن يتقاضى أجرًا) ، عند موقف سيارات (دشنا) ..

وبالتحديد (أبو دياب شرق) ..

وما إن أخبرت السائقين أننى طبيب الوحدة الصحية الجديد ،

حتى انهالت السلامات والتحيات ، وانفتحت أبواب السيارات ، وسرقنى السكين كما يقولون ، فلم أشعر إلا وأنا أنطلق فى سيارة الأسطى (عبد الله) ، إلى (أبو دياب شرق) ..

وفى الطريق ، راحت السكرة ، وجاءت الفكرة ..

ولقد جاءت هذه الفكرة بالتحديد ، عندما انحرفت السيارة عن الطريق الأسفلتى ، وبدأت تنطلق نحو مجاهل وجبال مخيفة ، عبر طرق ترابية غير ممهَّدة ..

فى البداية ، تصوَّرت أن السير فى هذه المجاهل سيستغرق خمس أو عشر دقائق على الأكثر ، ثم راح قلبى يدق فى عنف ، بعد ربع الساعة الأولى ، ثم ارتجف مذعورًا بعد ثلث الساعة ، وسقط بين قدمىَّ مع الدقائق الخمس التالية ، قبل أن أسمع الأسطى (عبد الله) ، وهو يقول فى حماس :

ـ الوحدة الصحية يا (باشا) ..

وفى ظروف أخرى ، كان اللقب سيسعدنى بشدة (على الرغم من بغضى للألقاب) ، ولكن فى تلك اللحظات هناك ، فى حضن الجبل ، كنت مستعدًا للتنازل عن لقب (أفندى) ، مقابل لحظة من الشعور بالأمان ..

فتلك الوحدة الصحية ، التى ظهرت فجأة ، مع دوران السيارة حول مرتفع صخرى ، كانت مجرَّد بناء بسيط ، نصفه من طابق واحد ، والنصف الآخر من طابقين ، وسط فراغ ضخم ، تبدو فى نهايته قرية يختفى معظمها خلف الأشجار ..

باختصار ، كانت هى بالضبط ذلك المكان ، الذى يصفونه بأنه لا يحوى (صرَيخ ابن يومين) ..

وعندما ابتعدت سيارة الأسطى (عبد اللّه) ، واختفت فى الأفق ، صرت أنا ذلك الـ (صرَيخ) ، ولكن ابن كذا ألف يوم ..

ومع نفس عميق ، وقراءة المعوذتين ، والاتكال على اللّه (سبحانه وتعالى) ، صعدت إلى الوحدة الصحية ..

فى البداية ، تصوَّرت مع الصمت والسكون أن المكان مهجور، يصلح لأحد أفلام (ألفريد هتشكوك) ، ثم لم ألبث أن شعرت بحركة فى الطابق الثانى ، فصعدت إليه ، وطرقت الباب ، و ...

وانفتح الباب ..

وأمامى مباشرة ، رأيت رجلاً قصير القامة ، أشيب الشعر ، ممتلئ الجسم ، يميل رأسه إلى اليسار ، حتى ليكاد يستند إلى كتفه ، وهو يرمقنى بعينين محمرتين نفَّاذتين ..

وبهدوء (افتعلته طبعًا) ، أخبرته أننى طبيب الوحدة الجديد ..

وانطلقت صرخة استنكار واستهجان قوى ، كادت تدفعنى للقفز من الطابق الثانى ، والجرى بكل قوتى ، بمنتهى الرعب والذعر ، حتى أبلغ مدينتى (طنطا) ..

ولكن العجيب أن تلك الصرخة لم تنطلق من بين شفتى ذلك القصير ..

بل من داخل الوحدة نفسها ..

لقد أطلقها الدكتور (محمد) ، طبيب الوحدة الاسكندرانى ،

الذى استقرّ به المقام لأكثر من عام ، دون أن يتصوَّر أن أحدًا سيقتحم حياته هكذا بغتة ، ويشاركه أرباحه وغنائمه ..

وعلى عكس الحفاوة ، التى استقبلنى بها (حجاج) ، كاتب الوحدة (وما أدراك ما كاتب الوحدة) ، كان الدكتور (محمد) جافًّا غاضبًا ثائرًا ، يتمنى لو يلقى بى فى أعمق أعماق الجحيم ، وأنا أبلغه أننى سأتسلم العمل منه ، بعد يومين فحسب ..

ولم تستغرق زيارتى هذه سوى دقائق قليلة ، لم تكمل نصف الساعة ، قبل أن ترهقنى ثورة الدكتور (محمد) ، التى لم يحاول حجبها أو إخفاءها ، وأقرَّر العودة إلى (قفط) بأى ثمن ..

وصاحبنى (حجاج) برأسه المائل ونظراته النافذة ، لنقف عند الطريق ، فى انتظار أية سيارة تعيدنى إلى (قنا) ، وراح يتحدَّث معى بمودَّة شديدة ، ويؤكِّد لى أن الحياة فى هذا المكان (الكئيب) ستروق لى جدًّا ، إذ يبدو أنه تصوَّر أننى مصاب بالهلوسة أو الاكتئاب الذهانى لسبب ما ..

وفى (قنا) ، عدت أحزم حقيبتى الوحيدة ، وأستعيد ما فعله معى الدكتور (محمد) ، ثم أتساءل عما إذا كان من الضرورى أن أشترى طبنجة لحماية نفسى ، أم أننى أستطيع استئجار أحد أبناء (أبو دياب) كحارس خاص ؟!

كنت أفكر فى هذا ، دون أن أدرى أنه ولا الجن الأزرق ، يمكنه أن ينقذنى من زميل الوحدة الصحية ..

هذا لأنه كان ، وبمنتهى البساطة والوضوح ، بخيلاً ..

وطوال ستة أشهر كاملة ، عشت جحيم البخل هذا فى أسوأ صوره ..

وقد يعترض البعض منكم على وصف (الجحيم) هذا ، ويتصوَّر أنه يحوى بعض المبالغة ، لذا فمن المحتم أن أنقل إليكم بعض نماذج هذا البُخل ، على الرغم من كراهيتى لاستعادتها ..

فذات يوم مثلاً ، وفى أعقاب عيد الفطر المبارك ، عدت إلى الوحدة بصندوق من الكعك والبسكويت ، أصرَّت والدتى باستماتة على منحى إياه (ولم أقاوم أو أعارض بالطبع، بعد مرحلة الجوع الكافر ، التى عشتها فى مركز التدريب) ، وكما علمونا ، وضعت الصندوق مفتوحًا على منضدة الصالة ، ليأكل منه كل من يشاء ، فالطعام والشراب لكل فم ، كما أكَّد لى الجميع منذ طفولتى ..

وفى كل صباح ، كانت عاملة الوحدة تعد لنا كوبين من الشاى ، ويخرج الدكتور (محمد) من حجرته ، ليشرب كوبه ، ويأكل معه كل ما يحلو له من صندوقى ..

حتى نفدت محتويات الصندوق تمامًا ..

واعتبارًا من اليوم التالى ، ولفترة طويلة ، كان الدكتور (محمد) يخرج كل صباح من حجرته بكرم حاتمى ، حاملاً قطعتين من الكعك ، ليلتهمهما وحده (بمنتهى البجاحة) ، مع كوب الشاى ، ثم يخرج لأداء عمله ، وكأن شيئًا لم يكن ، وبراءة (العيال) فى عينيه ..

مرة أخرى كان يستعد لشراء مستلزمات العشاء ، فسألنى عما أرغب فى تناوله ، وبمنتهى البراءة ، أخبرته أننى آكل كل شىء ، فيما عدا المربات ..

ومن المؤكَّد أنكم قد استنتجتم ما حدث ، وخاصة عندما تعلمون أننا كنا ندفع كل المصاريف مناصفة ..

لقد أحضر ست علب مربى ، وعلبتى جبن أبيض ..

واشتعل غضبى مع هذا الموقف السخيف ، فما كان منى إلا أن حملت ثلاث علب مربى ، وجلست فى الشرفة ، ألتهمها

دون خبز أمام عينيه ، اللتين أطلّ منهما ألم ومرارة وحسرة الدنيا كلها ، حتى أتيت عليها عن آخرها ..

كل هذا وأنا أكره المربى (وربما كان هذا هو سبب تلذذى من أكل المربى ، فى هذه الأيام) ..

الواقعة الثالثة ، هى أنه عندما غادر الوحدة نهائيًا (وكانت أوّل مرة أشعر فيها بالسعادة ؛ لأننا فى (قنا) ، (بلدة القلل) ، عثرنا أسفل فراشه على أطنان من قشر الموز والبرتقال وأوراق البسكويت ، وعلب الجبن الفارغة ، التى كان يحضرها إلى حجرته ، ويلتهمها سرًا ، حتى لا أراه أو أشعر به ..

لكن أسوأ موقف فعله معى ، فى فترة عملنا معًا ، هو عندما أصابنى التيفويد ذات مرة ..

ففى تلك الفترة لم نجد فى الوحدة كلها سوى شريط واحد من (كلورامفينيكول) ، وكان هو العلاج الوحيد للمرض آنذاك ..

وبشهامة ، أحضر الكاتب (حجاج) ذلك الشريط ، وعاوننى على ابتلاع كبسولتين منه على الفور ، على أن أتناول مثلهما كل ثمانى ساعات ..

ولكن الشريط اختفى تمامًا ..

ولم تكن المواصلات متوافرة لمدينة (قنا) فى الليل ، وقلب (حجاج) المكان كله بحثًا عن الشريط ، وحالتى تسوء أكثر وأكثر ، والدكتور (محمد) المحترم هادئ جدًا ، ولا يعلّق على ما يحدث بحرف واحد ..

ثم فجأة ، وبمصادفة عجيبة ، كشف (حجاج) الشريط الفارغ من الكبسولات ، فى حجرة الطبيب المحترم ..

لقد سرق الشريط (علاجى الوحيد) ، وابتلع الكبسولات بانتظام ؛ ليحمى نفسه من العدوى ، حتى ولو أدّى هذا إلى موتى أنا ؟!

هل يكفيكم هذا ؟!

عظيم .. دعونا ننتقل إذن إلى نقطة أخرى ..

فمنذ يومى الأوّل فى (أبو دياب شرق) ، وكعادتى فى كل مكان جديد ، رحت أستكشف كل ما حولى بمنتهى الاهتمام ..

وأوّل ما لاحظته هو أن القرية تنقسم إلى فريقين كبيرين ..

العرب .. والهوّارة ..

كل فريق منهما له عالم خاص به ، يصعب اختراقه ، وكشف أعماقه ومكنوناته ..

وبالذات عالم الهوّارة ..

إنه عالم أشبه بعالم النازية ، وأساطير السامية ..

فيه محدودية وتعال ، وقوة ، وغطرسة ، وزهو ، حتى إن الهوّارة يتصوّرون أنهم أفضل خلق الله (سبحانه وتعالى) ، فلا ينبغى عليهم أن يمتزجوا بباقى البشر ، ولا أن يشاركوهم ، أو يصادقوهم ، أو يزوّجوهم بناتهم ..

لا بأس عندهم فى أن يتفضّلوا بالزواج من بنت حواء أخرى ، من أى مجتمع ، باعتبار أنهم ـ طبقًا للفكر الجنوبى ـ سيسيطرون عليها ، وعلى عائلتها أيضًا ..

أما أن يمنحوا بناتهم لجنس آخر، فهذا هو المستحيل بعينه ..

وعلى الجانب الآخر تجد العرب ، بتماسكهم واعتدادهم ، وإصرارهم على إثبات حسن منبتهم وأصالة وجودهم ..

كل المهن المتطوّرة ، كان يمتهنها العرب وحدهم ..

أما الهـوَارة ، فهم أصـحاب الأراضى الواسـعة ، والثـروات الضخمة ، والسطوة ، والنفوذ ، والقوة ..

ولأن الإحساس بالقوة وحده يكفى بعض البشر ، فقد كانت منازل العرب أنيقة ، بسيطة ، نظيفة ، عصرية .. إلا فيما ندر..

أما منازل الهوَارة ، فـ ...

وللا بلاش ..

برضه إلا فيما ندر ..

ونساء العرب تشبهن ، فـى أزيـائهن وتصرفـاتهن ، نسـاء المنـاطق الشـعبية البسـيطة فـى (مصـر) ، وهـن مرحـات ، تلقائيات ، ومهذبات للغاية بالطبع ..

أما نساء الهوَارة ، فمن المستحيل أن تصف أزياءهن ؛ لأنهن يرتدين (البردة) طوال الوقت ..

وتلك (البردة) عبارة عن شىء أشبه بالبطانية ، مصنوع من الصوف ، وعلى أية هوارية أن ترتديه ، ما دامت خارج المنزل ، وألا تظهر منها سوى عين واحدة ، ترشدها إلى الطريق ، بدلاً من العصا والكلب الوولف ..

أما العين الثانية ، فهى قلة أدب ، ما دام يمكنها أن ترى بعين واحدة ..

وإذا ما مرضت عربية ، فهى تأتى إلى الوحدة للكشف الطبى، أو يطلبك زوجها علنًا ، لمعاودتها فى منزلها ..

أما الهوارية ، فمرضها له طقوس مختلفة ..

ففى أغلب الأحوال ، يتم تركها للطبيعة ، فإما أن تشفى وحدها ، أو ترتاح من عذاب الدنيا ..

أما لو كان زوجها متفتحًا ، فالأمر يختلف ..

سيأتى لزيارتك سرًا ، بعد منتصف الليل بساعة ، أو ساعتين، وهو يخفى وجهه بوشاح سميك ، وبعد أن يباغتك ، ويقطع ولدك ، ويخبرك بكلمة سر الليل ، سيطلب منك بخشونة أن تعدّ حقيبتك وتتبعه ..

ووسط الحقول والظلام ، ومع موسيقى فحيح الثعابين وعواء الذئاب الشجى ، تتسللان معًا إلى منزله ، وتقطعان الأسلاك الشائكة ، وتتجاوزان حقول الألغام ، حتى يمكنك أن توقّع الكشف الطبى على زوجته ، التى تعانى من مغص كلوى حاد ، منذ شهر واحد فحسب ، دون أن ينتبه هوَارى آخر إلى هذا العار ..

ولكن الحق يقال ، لقد كانوا جميعًا فى منتهى الكرم ، فبعد كتابة الروشتة ، كانوا يعيدوننى إلى الوحدة الصحية (تسللًا طبعًا) ، دون أن يتركونى طعامًا للذئاب ، أو يطلقوا علىَّ النار ، حتى يموت معى السر العظيم ..

وفى أحوال أخرى ، كنت تجد أمامك عملاقًا ضخمًا ، عريض المنكبين ، كث الشارب والحاجبين ، غليظ الملامح ، يشكو لك من أعراض غريبة ، لا يمكنك معها إلا أن تصافحه ، وأنت تبتسم فى ارتباك قائلاً :

ـ مبروك .. جنابك حامل فى شهرين .

فالأعراض التى يصفها بمنتهى الدقة ، تعانى منها زوجته وليس هو ، ولكنه يأتى للكشف بدلاً منها ، حتى لا تنكشف على رجل آخر ..

ومن أطرف المواقف التى واجهتها ، بسبب هذه العادات المتوارثة ، هو أننى قد تسللت يومًا إلى منزل أحدهم ، فى الثانية صباحًا ، لأجد أمامى بابًا مغلقًا ، به ثقب فى منتصفه ، ومن الثقب يبرز إصبع امرأة ، التهب إظفرها ، وامتلأ بالصديد..

وبمنتهى العناد والإصرار ، رفض زوجها أن أقوم بقياس درجة حرارتها ، أو مستوى ضغط الدم لديها ، باعتبار أن الإصبع هو المصاب ، وها هو ذا أمامى ، فما الذى أريده أكثر من هذا ؟!!

قلة حياء ..

منى طبعًا ..

ولكنها تقاليدهم على أية حال ، ومن الضرورى أن نحترمها ، حتى ولو اختلفنا معهم ألف مرة ، وإلا فعلينا أن نعذر الغرب ، عندما يتهمنا بالتخلف، لمجرد أن البنت عندنا تحافظ على عذريتها حتى الزواج !!

وعلى أية حال ، فمهما اختلف العرب والهوارة ، فى تاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم ، فهم يتفقون جميعًا فى عادة واحدة ، ومزية لا يدانيهم فيها أحد ..

الكرم ..

كرم حاتمى مدهش ، يبهرك فى البداية ، ثم يخلب لبك كله فيما بعد ..

وبسبب هذا الكرم ، لم أكد أضع قدمى فى القرية ، حتى وجدت أمامى أكثر من عشر دعوات لتناول الغذاء أو العشاء ، عند أكابر الهوارة والعرب على السواء ، بدءًا من العمدة ، وحتى (فتحى أمين) ، الذى صار أفضل أصدقائى فيما بعد ..

وبمنتهى الجدية والحزم ، أخبرنى الكاتب (حجاج) أنه من العار .. كل العار.. أن أرفض دعوة أى شخص منهم، وأنه من الضرورى أن أرتب الدعوات، بحيث يمكننى تلبيتها كلها فى أيام معدودات ..

وتصورت أنا ، بكل البراءة ، أن الأمر بسيط للغاية ..

وذهبت لألبى دعوة العمدة فى البداية ..

وعلى مائدة الطعام ، وجدت أمامى طنًا من اللحوم الدسمة للغاية ، والتى تسيل منها كمية من الدهون ، تكفى لفتح مصنع سمن طبيعى ..

هذا بالإضافة إلى (الويكة) والملوخية بالطبع ..

و (الويكة) ، لمن لا يعرفها ، هى (بامية) ، يتم طهيها دون صلصة ، باستخدام الماء والثوم فحسب ..

وأنا أعلم هذا ، ليس لأننى قد تعلمت الطهى (فالأيسر أن أتعلم الهيروغليفية) ، ولكن لأننى ظللت آكل (الويكة)

والملوخية ، دون سائر أنواع الخضراوات الأخرى ، لمدة عام ونصف بلا انقطاع ..

ولهذا قصة أخرى ..

المهم أنه كان علىَّ أن أتناول وألتهم نصف طن الدسم هذا على الأقل ، حتى لا يصاب الداعى بالإحباط ، ويتصوَّر أننى قد أهنته برفض طعامه ..

ولقد بذلت قصارى جهدى ، حتى كادت معدتى تنفجر ، ثم شربت بعدها كوبًا من مادة سوداء كالحبر ، عرفت فيما بعد أنها الشاى ، ولكنهم هنا يعدونه فى كنكة البن الصغيرة ، بمقادير مدهشة ، إذ يوضع فى الكنكة كيلو من الشاى ، مع كيلوين من السكر ، مع إضافة الماء ، والتقليب لمدة أسبوع أو أسبوعين ..

وعندما يتحوَّل المزيج إلى شىء أشبه بالقار ، يتم صبه فى أكواب صغيرة جدًا ، و ...

معذرة .. يتم صبه فى كوب واحد ، أشربه أنا أوَّلاً (وهذه هى الحسنة الوحيدة فى الأمر) ، ثم يصب فيه الشاى للآخرين ، طبقًا لمنزلتهم الاجتماعية ..

وغادرت دوَّار العمدة ، وقد أصبحت فجأة أشبه بالممثل الراحل (عبد الفتاح القصرى) ، بكرش ضخم أمامى ، وعينين أصابهما الحول ، وعقل لم يعد يبحث سوى عن (نورماندى تو) ..

وباغتنى (حجاج) بأنه هناك دعوة تنتظرنا على العشاء ، فى منزل الحاج (على) ، كبير العرب ..

ولأنه من العار أن أرفض الدعوة ، أو حتى أعتذر طالبًا تأجيلها لموعد آخر ، ذهبت إلى منزل الحاج (على) ..

وكان الطعام مختلفًا تمامًا ، باعتبارها وجبة عشاء ..

طن من اللحم الغارق فى الدسم ..

مع (الويكة) والملوخية بالطبع ..

وتساءلت وأنا أجلس على المائدة فى أسى :

- ترى هل توجد وسيلة لو خرجنا إلى الوحدة بعد العشاء ؟!

ولكم أن تتصوَّروا أن هذا الأمر قد تكرَّر، على المنوال نفسه ، طوال سبعة أيام كاملة بلا توقُّف ، و ...

ترى هل رأى أحدكم مركبتى (نورماندى تو) ؟!

★ ★ ★

ستة أشهر كاملة ، قضيتها فى الوحدة الصحية فى (أبو دياب شرق) ، بصحبة الدكتور (محمد) ، وبخله ، وتصرفاته الأنانية السخيفة ..

ستة أشهر ، وأنا آكل (الويكة) والملوخية يوميًا ..

وذات يوم ، فاض بى الكيل ، وقرَّرت أن أقضى يومى الخميس والجمعة فى (قنا) ، حتى يمكننى تناول وجبة طبيعية على الأقل ..

وفى صباح الخميس ، ارتديت ثيابى ، وحملت حقيبة صغيرة ، وانتظرت أوَّل سيارة أجرة قادمة على الطريق ، وانطلقت بها إلى مدينة (قنا) ، متصوِّرًا أننى أنطلق من السجن إلى الحرية ..

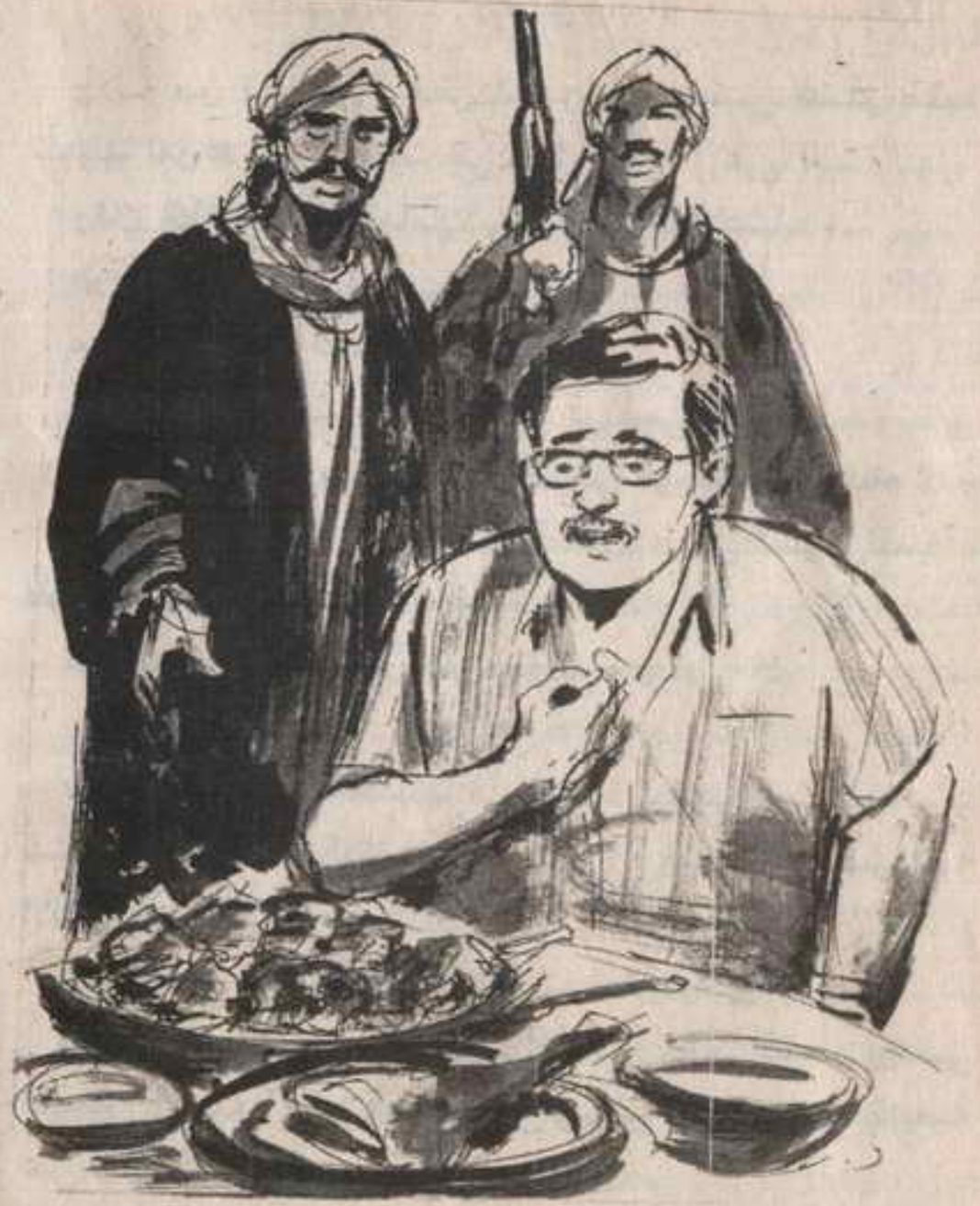

ولأنه من العار أن أرفض الدعوة ، أو حتى أعتذر طالبًا تأجيلها لموعد آخر ، ذهبت إلى منزل الحاج (على) .. وكان الطعام مختلفًا تمامًا ، باعتبارها وجبة عشاء ..

وما إن وصلت (قنا) ، حتى انطلقت أسير فى شوارعها ، كطائر غادر قفصه ، بعد حبس طويل ..

ولكن فجأة ، كشفت أن شوارع المدينة كلها قد انتهت ..

لقد قطعتها كلها خلال ساعة واحدة ..

ولكننى قلت لنفسى :

ـ لا تدع هذا يحبطك .. تمتع بوقتك ، مهما كانت المنغصات..

وكأى سجين محروم ، رحت أبحث عن أهم شىء فى الدنيا ..

عن مطعم ..

وبسرعة لم أكن أتوقعها ، عثرت على مطعم بسيط أنيق ، فوثبت إلى أقرب مائدة خالية (الواقع أن كل الموائد كانت خالية)، وطلبت قائمة الطعام ..

وبدهشة حقيقية ، سألنى الرجل :

ـ أية قائمة ؟!

حاولت توضيح الأمر أكثر ، وأنا أقول بابتسامة كبيرة :

ـ القائمة .. تلك الورقة الكبيرة ، التى تحوى كل ما لديكم من أصناف الطعام .

وهنا ابتسم الرجل بعد أن فهم ما أعنيه (أو هكذا خُيِّل إلىَّ) ، وقال :

ـ وما الحاجة إلى ورقة ؟! أنا سأخبرك ما لدينا .

وشعرت بالدهشة مع كلماته ، فكيف يمكن لشخص ما أن يحفظ قائمة طعام كاملة بهذه البساطة ؟!

ولكن هذه الدهشة زالت بسرعة ، عندما علمت أن ما لديهم ثلاثة أصناف فحسب ، بخلاف الأرز طبعًا ..

فهناك البطاطس ..

ثم (الويكة) والملوخية ..

وبمنتهى الإحباط ، طلبت طبقًا من الأرز ، وآخر من البطاطس المطبوخة ، و ..

لا داعى ، فالذكريات السيئة تؤلم أحيانًا ..

المهم أننى قد قضيت اليوم بطوله فى (قنا) ، على نحو أو آخر ، حتى أتى المساء ..

وعندما يأتى المساء ، لا يفكر المرء إلا فى أمر واحد ..

النوم ..

وهنا بدأت رحلة البحث عن فندق ..

وكانت الصدمة الكبرى ..

كل غرف الفنادق مشغولة بالكامل ، وكل سيارات الأجرة ، الذاهبة إلى (أبو دياب شرق) رحلت ..

وسقطت أنا بين المطرقة والسندان ..

وبمنتهى الذعر ، رحت أتساءل : كيف سأقضى ليلتى ؟!

وعلى أى رصيف ؟!

ويبدو أن الذعر كان قد حفر خطوطه بمنتهى الوضوح على وجهى ، حتى إن موظف الاستقبال فى أحد الفنادق نظر إلىَّ بإشفاق ، قائلاً فى تردُّد :

ـ الواقع أنه توجد حجرة ، ولكن ..

صحت أقاطعه فى لهفة :

ـ لا يهم لكن .. أعطنى إياها .

وكالغريق الذى يتعلَّق بقشة ، رفضت أن أستمع إلى الرجل ، وطلبت منه إعطائى تلك الحجرة فورًا ..

وحصلت على الحجرة ..

لست أدرى فى الواقع ما إذا كان من الإنصاف أن أطلق عليها اسم حجرة أم لا ؛ فهى مجرَّد شريحة صغيرة ، تحوى فراشًا يحتلها بالكامل ، حتى إنك تفتح بابها ، ثم تقفز فوقه مباشرة ..

وفوق ذلك الفراش ، يوجد حوض (وهذا جعلنى أتساءل عن الطبيعة الحقيقية لتلك الحجرة ، وعما يمكن أن أجده ، لو نظرت تحت الفراش) ..

وعندما رقدت على الفراش ، الذى هو فى الوقت ذاته مساحة الحجرة كلها ، كان الحوض فوق رأسى مباشرة ..

ولكننى ، وعلى الرغم من كل هذا ، قلت لنفسى :

ـ ليلة وتمرّ ..

إلا أنها أبت أن تمر ..

فكوع الحوض مثقوب ، والنافذة الصغيرة بلا قفل ، و ... و ...

المهم أن الليلة كانت أطول ليلة فى التاريخ ، ولم تكد الشمس تشرق ، حتى كنت ألملم أشيائى ، وأغادر الفندق ، وأعدو نحو

موقف سيارات (أبو دياب شرق) ، حاملاً لافتات بيضاء ، كتب عليها بكل حماس : « نموت نموت وتحيا (الويكة) .. والملوخية » ..

وعندما وصلت إلى القرية ، فكّرت جدّيًا فى الانحناء وتقبيل ترابها ، لولا ما لمحته فوق ذلك التراب من مخلفات حيوانات القرية الأعزاء ، مما جعلنى أصرف النظر عن الفكرة كلها ، وأكتفى بتقبيل يدى وجهًا لظهر ، على عودتى سالمًا ..

ولكن القدر كان يدخر لى مفاجأة سارة للغاية ..

لقد أنهى الدكتور (محمد) مدة تكليفه ، وقرّر العودة إلى (الإسكندرية) ..

وكان هذا يعنى أن الجحيم سيغلق أبوابه أخيرًا ..

وأن الوقت قد حان لبدء عهد جديد ..

عهد تنتقل إلىَّ فيه السلطة ، وأصبح الطبيب الوحيد فى القرية ..

ويا له من عهد !

* * *

البقية فى الكتاب القادم بإذن الله

١ ـ المليـاردير ..

سطعت الأضـواء وتـألقت فـى قاعـة التصوير التليفزيونـى فـى محطة (C.C.N) الأمريكية ، وعدل المذيع الشـهير ربـاط عنقـه ، وتأكد مـن أناقتـه ووسـامته للمـرة العاشـرة ، قبـل أن يشـير إلـى مخرج البرنامج ، قائلاً :

ـ نحن على أتم استعداد .

أشار إليه المخرج بإبهامه ، قائلاً فى تعجل متوتر :

ـ سنبدأ البث بعد دقيقة واحدة .

أومأ المذيع برأسـه متفهمًـا ، قبـل أن يلتفـت إلـى (باسـل) ، ويقول بابتسامة كبيرة :

ـ أأنت مستعد يا أستاذ (باسل) ؟

تنهّد (باسل) ، وأجاب فى ضجر واضح :

ـ بالتأكيد .. إننى مستعد منذ فترة طويلة .

ارتفع صوت المخرج داخل قاعة التصوير ، وهو يقول :

ـ فليستعد الجميع .. عشرة .. تسعة .. ثمانية .. سبعة .. ستة .. خمسة .. أربعة .. ثلاثة .. اثنان .. واحد .. الآن ..

انبعث صـوت الموسيقى التصـويريـة للبـرنـامج الشـهير ، وتركزت آلات التصوير على وجه المذيع وهو يقول :

ـ سيداتى آنساتى .. سادتى .. مرّة أخرى نلتقى فى برنامجكم المعروف (أغرب من الخيال) .. وفى هذه المرة نلتقى بصحفى عربى ، كانت له على أرضنا مغامرة أغرب بالفعل من الخيال .

ثم اتسع المشهد ليشمل (باسل) أيضًـا ، والمذيع يستدير إليه مستطردًا :

ـ أستاذ (باسل) .. هل التقيت حقًا بغزاة مـن الفضـاء هنـا ؟ وهل خضت معهم مغامرة عنيفة ، قبل أن تنجح فى الفرار منهم مع أحد أصدقائك بما يشبه المعجزة ؟

أجابه (باسل) فى هدوء :

ـ هـذا صحيح ، ولقـد نشـرت التفـاصيل كلهـا فـى الصحـف ، وأستعد حاليًا لإصدار كتاب فى هذا الشأن .

سأله المذيع ، فى لهجة مستفزة :

ـ لماذا إذن لم يعثر المسئولون على أية آثار لهـؤلاء الغزاة ، عندما ذهبوا إلى البقعة التى حدّدتها مع زميلك ؟

أجابه (باسل) فى حزم هادئ :

ـ لا يمكننى إجابة هـذا السـؤال ، فلست أدرى مـا إذا كـان المسئولون لم يعثروا بالفعـل على أى أثـر للغـزاة ، أم أن هـذا ما تقوله تصريحاتهم الرسمية فحسب .

ارتفع حاجبا المذيع فى دهشة ، وهو يقول :

ـ ما الذى تقصده بهذا القول بالضبط يا أستاذ (باسل) ؟

أجابه (باسل) فى سرعة :

ـ أقصد أنـه مـن المفترض أن توجـه سؤالك هذا للمسئولين عندكم ، وليس لى .

لم يرق الجواب للمذيع ، فانعقد حاجباه فى شـىء من الضيق وهو يسأل (باسل) :

ـ قل لى يا أستاذ (باسل) : هل تؤمن حقًا بوجود مخلوقات فى كواكب أخرى ؟

أومأ (باسل) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ الله (سبحانه وتعالى) الذى خلق الحياة فى قاع البحار والمحيطات ، وأعماق الكهوف وباطن الأرض ، قادر على خلق الحياة أيضًا فى غياهب الكون ، وفى أبعد الكواكب وأصعبها بيئة ومناخًا .

استمر البرنامج على هذا المنوال ، والمذيع يحاور (باسل) ويناوره ويحاول استفزازه وإخراجه عن وعيه وشعوره ، إلا أن (باسل) ظلّ هادئًا باسمًا واثقًا ، يجيب عن كل الأسئلة فى حنكة وبساطة أرهقتا المذيع الشهير ، حتى إنه بدا شديد الارتياح وهو يختم برنامجه بابتسامته الأنيقة ، وكأنما ألقى عن كاهله حملاً ثقيلاً ، ولم تكد الأضواء تنحسر حتى التفت إلى (باسل) ، وهتف به :

ـ هل تؤمن بكل هذا حقًا ؟

ابتسم (باسل) وغادر مقعده ، وهو يقول :

ـ لم أعتد نطق حرف واحد لا أومن به تمامًا يا رجل .

اتعقد حاجبا المذيع فى شدة ، وهو يقول محتدًا :

ـ هذا ما أسمعه من الجميع ، ولكننى أسأل عن الحقيقة .

أجابه (باسل) ، وهو يبتعد فى سرعة :

ـ هذه هى الحقيقة .

كان يشعر بضجر شديد فى التعامل مع أجهزة الإعلام ، التى تسعى لتقديم البرامج المثيرة ، التى تجتذب أكبر عدد من المشاهدين ، دون الاهتمام بما يمكن أن تقدم هذه البرامج من معارف وأفكار مجدية ومفيدة ..

وفى سرعة ، وكمن يفر من منطقة موبوءة ، غادر (باسل) مبنى المحطة التليفزيونية الشهيرة ، وهبط إلى مرأب البناية حيث استقرت سيارته ، وهو يغمغم :

ـ أعتقد أن هذا يكفى فى (الولايات المتحدة الأمريكية) ، فأنا أتوق كثيرًا للعودة إلى (المملكة) ، ولقاء الأصدقاء والـ .....

بتر عبارته بغتة ، عندما انتبه إلى هذا الشخص الضخم الجثة ، الذى برز من خلف سيارته فى معطف مطر باهت ، ورمقه بنظرة قاسية ، وهو يقول :

ـ أستاذ (باسل) أليس كذلك ؟

قبل أن يجيب (باسل) ، ظهر رجل ثان فى معطف مماثل ، ولكنه أقل حجمًا ، وبدا وكأن الرجلين يسعيان لتطويقه مع اقتراب الأول من يساره فى خفة ، واتجاه الثانى نحوه من اليمين دون أن ينتظرا جوابه .

ولم يضع (باسل) لحظة واحدة .

لقد تحرّك فى سرعة ، فوثب نحو الأول الذى أخذته المفاجأة ، وهتف :

ـ ما هذا ؟ إنك .....

قبل أن يتم كلمته ، كانت قبضة (باسل) تهوى على فكه كالقنبلة وتبعده مترين إلى الخلف ، فى نفس اللحظة التى اندفع فيها الثانى نحو بطلنا ، ويده تثب إلى جيب معطفه ، فاستدار إليه (باسل) فى سرعة وانزلق فى مهارة ليركل قدمى الرجل فى قوة أفقدته توازنه ، وجعلته يسقط أرضًا قبل أن تبلغ يده جيب معطفه ، فانقض عليها (باسل) ولوى ذراعه خلف ظهره فى حركة سريعة مرنة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لا داعى لهذا ، لن أسمح لك بالتقاط سلاحك .

هتف الرجل منزعجًا :

ـ ولكنك لا تفهم شيئًا .. إننا لم نحاول مهاجمتك .

لمح (باسل) الضخم ينهض ، وهو يمسك فكه فى غضب ، فصاح فى حدة :

ـ ماذا تسمى ما فعلتماه إذن ؟

فاجأه صوت هادئ من خلفه ، يقول :

ـ إنهما لم يفعلا شيئًا .. أنت الذى تسرعت يا أستاذ (باسل) !

استدار (باسل) إلى مصدر الصوت فى دهشة ، ووقع بصره على رجل وقور، أشيب الفودين، وقف إلى جوار سيارة فاخرة

فارهة ، فتح سائقها بابها فى احترام بالغ ، والرجل يواصل حديثه مبتسمًا :

ـ لقد أرادا أن يدعواك لمقابلتى ، ولست أدرى لماذا بادرتهما بالهجوم ؟

امتزجت دهشة (باسل) بالكثير من الحرج ، وهو يغمغم :

ـ مقابلتك ؟!

هتف به الضخم فى حنق :

ـ نعم .. هذا كل ما سعينا إليه ، ولكنك تصرفت بعدوانية عجيبة .

تخلى (باسل) عن ذراع الآخر ، ونهض يغمغم معتذرًا :

ـ من الواضح أننى أسأت فهم الموقف بالفعل .. تقبلا أسفى ، ولكنكما تحركتما على نحو مريب .

أطلق الأنيق ضحكة جذلة ، وهو يقول :

ـ لا عليك يا أستاذ (باسل) .. الواقع أنك تعاملت معهما بمهارة تستحق الإعجاب .. لقد كانت واقعة مدهشة بالفعل .

عقد الرجلان حواجبهما فى غضب ، فى حين اتجه الأنيق نحو (باسل) ،.وصافحه قائلاً :

ـ اسمى (دونالد ويست) ، وأعتقد أنك سمعت اسمى من قبل .

هتف (باسل) :

ـ بالطبع.. أنت صاحب مجموعة من أقوى الصحف والمجلات فى طول (الولايات المتحدة الأمريكية) وعرضها .

ابتسم (دونالد) فى شىء من الزهو ، وهو يقول :

ـ بالضبط .. معلوماتك جيدة للغاية يا أستاذ (باسل) ، وهذه واحدة من صفات الصحفى الناجح .

ثم صمت لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ وهذا ما أحتاج إليه بالضبط .

أطلت نظرة تساؤل فى عينى (باسل) ، فاتسعت ابتسامة (دونالد) ، وهو يتابع :

ـ ما رأيك فى العمل لحسابى يا أستاذ (باسل) ؟

رتسمت الدهشة على وجه (باسل) ، وقال :

★ ★ ★

ـ أعتقد أن أى صحفى يتمنى سماع مثل هذا العرض يا مستر (دونالد) ، ولكننى صحفى ، عربى، وأميل إلى العمل فى الصحف العربية ، ثم إن لديك عددًا من أفضل الصحفيين فى (أمريكا) كلها .

ابتسم (دونالد) ، وهو يقول :

ـ هذا صحيح يا أستاذ (باسل) ، ولكن المهمة التى أعرض عليك العمل لحسابى من أجلها ، ليست مهمة صحفية بالمعنى المفهوم ، ولكنها مهمة ذات طابع خاص .. خاص للغاية .

وتفجّر مزيج من الحيرة والتساؤل فى أعماق (باسل) ، وهو يتطلع إلى ابتسامة (دونالد ويست) التى بدت له غامضة .. غامضة إلى حد مخيف .

شعور عجيب ، ذلك الذى ملأ نفس (باسل) وهو يقف فى

مواجهة (دونالد ويست) فى تلك اللحظة ، فقد امتزجت روح الفضول والمغامرة فى أعماقه مع شعور قوى بالقلق والحذر ،

تسلل عبر عروقه ، ودفعه إلى التطلع إلى (دونالد) طويلاً فى صمت ، قبل أن يقول :

ـ وما طبيعة هذه المهمة الخاصة جدًا يا سيد (ويست) .

لم ترق له أبدًا ابتسامة (دونالد) وهو يجيب :

ـ تستطيع أن تقول إنها مهمة نصف صحفية ، ونصف بوليسية يا أستاذ (باسل) .. قل لى :

ـ هل سمعت عن دكتور (ارنست سيلرز) ؟

أجابه (باسل) فى حذر ، لم يدر ما الذى دفعه إليه بالتحديد :

ـ بالطبع .. إنه واحد من أكبر علماء الفيروسات فى العالم ، يقال إنه فى سبيله للتوصل إلى مصل جديد ، للوقاية من الإصابة بمرض (الإيدز) .

هتف (ويست) :

ـ عظيم .. هذا هو طراز الصحفى الذى أفضله .. ذكى ، وجرىء .. وواسع الاطلاع والمعرفة .. مرحى يا (باسل) إنك تناسب المهمة بالضبط .

سأله (باسل) فى حدة :

ـ وما طبيعة هذه المهمة بالضبط ؟

مرة أخرى لم ترق له ابتسامة الرجل الذى أجاب :

ـ (ارنست سيلرز) توصل بالفعل إلى المصل ، ولكنه يرفض الإفصاح عن تركيبه أو أسلوب صنعه ، ويصر على إعلان الأمر فى مؤتمر صحفى عالمى .

سأله (باسل) :

ـ وما المشكلة فى هذا ؟

هز (دونالد) كتفيه ، وهو يجيب :

ـ بعض شركات الأدوية لا يروق لها أن يعلن الدكتور (سيلرز) هذه المعلومات فى مؤتمر صحفى ، فهذا يجعلها مباحة للجميع ، فى حين أنه لو انفردت شركة واحدة باحتكار تصنيع المصل الجديد ، فستربح منه مليارات الدولارات .

قال (باسل) فى دهشة :

ـ ولكن هذا على حساب المرضى والمصابين والمعرضين للعدوى .

لوّح (دونالد) بذراعه فى حدة ، وهو يهتف :

ـ ومن يبالى بهذا ؟!

ارتفع حاجبا (باسل) فى دهشة أكبر ، فاستدرك (دونالد) فى سرعة :

ـ أقصد بالنسبة لأصحاب شركات الأدوية العملاقة ، الذين لا يهمهم سوى الأرباح الهائلة التى يمكن تحقيقها لو احتكرت تصنيع المصل وإنتاجه .

عاد حاجبا (باسل) ينخفضان ، ثم انعقدا فى شىء من التفكير لم يلبث أن أفصح عن نفسه على لسانه ، وهو يقول :

ـ مازلت لم أفهم المشكلة بعد .. ما طبيعة مهمتى بالتحديد ؟

التقط (دونالد) نفسًا عميقًا ، وأطلت من عينيه نظرة واثقة ، وهو يجيب :

ـ الواقع أن دكتور (سيلرز) يقيم خارج المدينة ، فى فيلا صغيرة ، والمفترض أن يقود سيارته إلى هنا صباح الغد ، لحضور المؤتمر الصحفى ، ولقد رفض حماية الشرطة له بإصرار ، ولهذا خطرت لى الفكرة .. إننا نحتاج بالطبع لحمايته ، وضمان وصوله إلى المؤتمر الصحفى سالمًا ، ولو أرسلت إليه أحد رجالنا للقيام بهذه المهمة ، سيشك فى أنه رجل شرطة متنكر ، وسيرفض وجوده إلى جواره تمامًا . أما لو ذهب إليه

صحفى عربى نال شهرة واسعة فى (أمريكا) فى الآونة الأخيرة ، فأعتقد أن الأمر سيختلف كثيرًا .

أومأ (باسل) برأسه متفهمًا ، وهو يقول :

ـ آه .. فهمت يا مستر (ويست).. إذن فأنت تطلب منى مهمة مزدوجة .. أن أصطحب دكتور (سيلرز) إلى المؤتمر كصحفى عربى ، وأن أقوم بحمايته طوال الطريق إلى هناك أيضًا .

لوّح (دونالد) بسبابته ، قائلاً بابتسامته المقلقة الواسعة :

ـ بالضبط .. ألم أقل لك : إنك ذكى بالفعل ؟

تطلّع إليه (باسل) لحظة ، قبل أن يسأله فى اهتمام :

ـ ولماذا تصورت أننى أصلح للمهمة يا مستر (ويست) ؟

قهقه (دونالد) ضاحكًا ، قبل أن يقول :

ـ اطمئن يا أستاذ (باسل) .. لقد درست الأمر جيدًا ، ووجدت أنك خير من يصلح للمهمة .

ثم غمز بعينه ، مستطردًا :

ـ ثم إننى سأدفع بسخاء .

انعقد حاجبا (باسل) فى ضيق ، وهو يقول :

ـ لن أفعل هذا قط من أجل المال يا مستر (ويست) ، سأفعله من أجل هؤلاء المرضى أو المعرضين للعدوى ، الذين يمكن أن يعاونهم مصل الدكتور (سيلرز) لو طرح بسعر مناسب .

تألقت عينا (ويست) وهو يمد يده إلى (باسل) ، قائلاً :

ـ اتفقنا .

وعندما تصافحا فى قوة ، كان (باسل) يتطلع إلى عينى (دونالد ويست) ، اللتين أطل منهما بريق لم يبعث فى نفسه الارتياح ..

أبدًا ..

★ ★ ★

عدّل الدكتور (سيلرز) منظاره الطبى فوق عينيه ، وهو يصافح (باسل) ويتطلع إلى وجهه فى اهتمام شديد ، قائلاً :

ـ أنت (باسل) إذن .. مستر (ويست) أخبرنى أنك ستصحبنى إلى قاعة المؤتمر .. أهذا صحيح ؟

أجابه (باسل) فى هدوء :

ـ لست وحدى يا سيِّدى ، فمعى المصور (فريدى) .. وسيلتقط لك بعض الصور فى أثناء الطريق .

انعقد حاجبا العالم ، وهو يقول فى حدة :

ـ كلا .. لست أحب هذا .. إننى أكره أن أبتسم أمام الكاميرا .

ضحك (فريدى) ، وهو يقول :

ـ لا عليك يا دكتور (سيلرز) .. لست أريد منك أن تبتسم .. أريد الصور طبيعية تمامًا .

مطّ الطبيب شفتيه فى شىء من الحنق ، ثم قال فى غلظة :

ـ فليكن .. هيا بنا .

كان قصير القامة فى حوالى الخمسين من العمر ، أشيب

الشعر ، حليق الوجـه ، يرتدى منظـارًا طبيًا بسيطًا ، وحلة من طراز قديم ، جعلته يبدو أشبه بممثل هزلى ، فى فيلم كلاسيكى من أفلام الأربعينيات .

وعندما استقر فى السيارة ، التى يقودها (باسل) ، بدا شديد التبرم والسخط ، وهتف :

ـ أزرار .. أزرار .. أزرار .. كيف تستمتعون بقيـادة هـذه السيارات الحديثة ؟! إنها تثير الملل .. ما الذى يفعله المـرء إذن لو أن كل ما حوله يدار بالأزرار .

ابتسم (باسل) وهو ينطلق بالسيارة ، قائلاً :

ـ حـاول أن تتقبل هذا يـا دكتـور (سيلرز) .. إنهـا ضريبـة التكنولوجيا ..

همهم الرجل بكلمات ساخطة ، انفجر لها (فريدى) ضاحكًـا ، وسطع ضوء مصباح التصوير داخل السيارة ، وهو يهتف :

ـ ملامحك رائعة فى أثناء الغضب يا دكتور (سيلرز) .

لوّح العالم بيده فى حدّة ، وهو يقول :

ـ كفى .. إنك تثير سخطى أكثر .

قهقه (فريدى) ضاحكًا مرة أخرى ، والتقط صورة جديدة ، فابتسم (باسل) وهو ينطلق بالسيارة فى الطريق الخاص ، الذى يربط منزل الدكتور (ويست) بالطريق العام .

كـان طريقًا ضـيقًا ، يسـتوعب سـيارة واحـدة فى كل من

الاتجاهين ، وتحيط بـه الأشـجار الطـويلة من كـل جـانب ، فسأل (باسل) :

ـ هل صنعت هذا الطريق بنفسك يا دكتور (سيلرز) ؟

هزّ الرجل كتفيه ، وأجاب فى شىء من الضجر :

ـ كلا .. لقد منحونى المنزل والطريق الخاص معًا .

فتح (باسل) شفتيه ، وهمّ بقـول شىء ما ، عنـدما صرخ (فريدى) فجأة :

ـ ربّاه !! ما هذا بالضبط ؟

ومع آخر حروف كلماته ، لاحظ (باسل) ذلك الشىء الذى أثاره على هذا النحو .. وانعقد حاجباه فى شدّة أيضًا مع صرخة الدكتور (سيلرز) :

صحيح .. ما هذا ؟

كانت هناك كرة عجيبة ، أشبه بكرة لهب ، تندفع نحوهم من نهاية الطريق ، كما لو أنها تتدحرج على الهواء .

وألسنة اللهب تحيط بها على نحـو مخيف ، فضغط (باسل) فرامل السيارة بحركة غريزيـة ، ثم دفـع عصـا السرعة إلى وضع العودة للخلف ، واستدار لينطلق بالسيارة عكسيًا ، ولكن (فريدى) صرخ فى رعب :

ـ لا فائدة .. ستبلغنا حتمًا .. إنها تقتـرب بسرعة مذهلـة .. و .....

وقبل أن يتم (فريدى) عبارته ، بلغت كـرة اللهـب السيارة ، وأحاطت بها فى سرعة مذهلة بالفعل .

وفى اللحظة التالية مباشرة ، شـعر (باسل) بصاعقـة هائلـة تهـوى على رأسـه ، وانتفض جسـده فى عنـف ، وسمع صراخ (فريدى) والدكتور (سيلرز) .. و ..

وانتهى كل شىء بغتة .

* * *

٢ ـ الـزمـن ..

لا أحد يدرى كم مضى من الوقت ، منذ ابتلعت كرة اللهب السيارة بركابها ، ولكن (باسل) استعاد وعيه بغتة ، وفتح عينيه دفعة واحدة ، قبل أن يبهره ضوء الشـمس ، فيعود لإغلاقهما ، وهو يتمتم :

ـ أين أنا ؟! ماذا حدث ؟!

عاد يفتح عينيه مرة أخرى فى بطء ، ثم حدق فيما حوله فى دهشة بالغة ..

لم يكن هناك طريق مرصوف فيما حولـه ، ولا أشجار على الجانبين ، بل صارت هناك صحراء جبلية شاسـعة تحيط بـه من كل جانب دون أدنى أثر للحضارة .. لا أعمدة إنارة ، أو طرقًا ممهّدة ، أو علامات طريق .

فقط كان هنـاك (فريدى) والدكتور (سيلرز) الفاقد الوعى من حوله ، والسيارة التى احترق معظمها .

وفى حيرة شديدة أخذ (باسل) يفحص جسدى (فريدى) والدكتور (سيلرز) ليتأكد من أنهما ما زالا على قيد الحياة .

كانت آثار الاحتراق أكثر وضوحًا على المقدمـة وأطراف الزجاج الأمامى ..

وتأوه (فريدى) ..

كان يستعيد وعيه فى ألم ، وهو يقول :

ـ ماذا أصابنا ؟ أهى صاعقة ؟

غمغم (باسل) :

ـ لو أنها صاعقة ، فيبدو أنها دمرت كل ما حولنا .

اتسعت عينا (فريدى) فى دهشة ، وهو يدير عينيه فيما حوله ، قبل أن يهتف :

ـ ربّاه ! ما هذا المكان بالضبط ؟

هزّ (باسل) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ لست أدرى .. هناك شىء غير مفهوم فيما حدث .

قال (فريدى) فى توتر :

ـ وما الذى حدث بالضبط ؟ كل ما أذكره هو أن كرة من اللهب انقضّت علينا ، وبعدها أصابتنى صاعقة رهيبة ، وأفقت لأجدنا هنا .. كيف فعلت بنا كرة اللهب هذا ؟

باغته صوت الدكتور (سيلرز) ، وهو يقول فى ضعف :

ـ بل السؤال هو ما طبيعة كرة اللهب هذه ؟

التفت الاثنان إلى الدكتور (سيلرز) الذى اعتدل متهالكًا ، وعدل وضع منظاره الطبى على عينيه ، وهو يستطرد :

ـ إننى لم أقرأ أو أسمع أو أرى شيئًا كهذا قط .

ثم حدّق فى الصحراء المحيطة بهم بدوره ، قبل أن يهتف :

ـ أين ذهب منزلى ؟!

جاوبه صمت تام ، أطبق على السيارة ، والجميع يحاولون استيعاب الموقف ، قبل أن يقطع (باسل) هذا الصمت ، وهو يعتدل ويمسك مفتاح السيارة ، قائلاً :

ـ فليكن .. سنؤجل البحث عن التفسير لما بعد ، أما الآن فسنحاول الخروج من هنا .

قالها ، وهو يدير المفتاح ، و ..

ولكن المحرّك لم يستجب قط .

لقد ظل صامتًا ساكنًا ، وكأنما فقدت السيارة كل طاقتها ، ولم تعد قادرة على تشغيله .

وفى حنق ، هتف (فريدى) :

ـ هذا ما كان ينقصنا .

تنهد الدكتور (سيلرز) ، وهو يقول :

ـ سيفوتنا المؤتمر الصحفى .

صاح (فريدى) مستنكرًا :

ـ أهذا كل ما يقلقك ؟

هتف الدكتور (سيلرز) :

ـ هل تحاول الحجر على تفكيرى ؟

كادا يشتبكان فى مشاجرة كلامية ، لولا أن اندفع (باسل) يهتف :

ـ لحظة .. الموقف لا يحتمل هذه التصرفات .. إننا نواجه مشكلة ، والمفترض أن نتكاتف لتجاوزها ، لا أن نصنع عددًا من المشكلات الجديدة .

صمت الاثنان إثر كلماته ، ثم فتح الدكتور (سيلرز) الباب ، وقال :

ـ فليكن .. هيّا بنا .

غادر الثلاثة السيارة ، ووقفوا يديرون رءوسهم فيما حولهم ، فى محـاولة لتحـديد الاتجـاه الذى سيتخذونه ، قبـل أن يقـول (باسل) :

ـ لقد كنا نتجه إلى الطريق الرئيسى ، عندما وقع الحادث ، دعونا ننطلق إذن .

قاطعه هتاف الدكتور (سيلرز) :

ـ انظرا هناك .

استدار الاثنان إلى حيث يشير ، ولاحظ (باسل) كرات من الدخـان تتصاعد من خلف جبل قريب ، على نحو منتظم ، فسأل فى اهتمام :

ـ ما هذا بالضبط ؟

أجابه الدكتور (سيلرز) :

ـ إنها رسالة دخان ، من ذلك النوع الذى يجيده الهنود الحمر القدامى ، ولكن .

صمت لحظة فى حيرة ، قبل أن يستطرد :

ـ ولكن أحدًا لم يعد يفعل هذا منذ عشرات السنين .

عقد (باسل) حاجبيه ، وهو يقول :

ـ ربما كانت وسيلة لجذب السياح .

صمت الدكتور (سيلرز) لحظة أخرى ، قبل أن يعدل منظاره ، مغمغمًا فى قلق واضح :

ـ نعم .. ربما !

رفع (فريدى) آلة التصوير إلى عينيه ، وهو يقول :

ـ على كل الأحوال ، الأمر يستحق التصوير .

وبدأ يلتقط صـور رسـالة الدخـان ، فابتسـم (باسـل) ، قائلاً :

ـ لا فائدة .. لن يوقفك أى شىء عن مواصلة عمـ ..

بتر عبارته بغتة ، والتقى حاجباه فى شدة ، فهتف به الدكتـور (سيلرز) فى قلق :

ـ ماذا هناك ؟

لوّح (باسل) بكفه ، قائلاً :

ـ لست أدرى .. أعتقد أن ..

ثم انحنى بسرعة ، وألصق أذنه بالأرض ، وبدا عليه الاهتمـام الشديد ، فهتف الدكتور (سيلرز) فى دهشة :

ـ ما الذى يفعله بالضبط ؟

هزّ (فريدى) رأسه فى حيرة ، وقال :

ـ لست أدرى ، ربما يحاول سماع دبيب النمل .

ولكن (باسل) اعتدل دفعة واحدة ، وهو يقول فى توتر :

ـ هناك جياد تقترب منا .. عدد كبير .. حوالى سبعة أو تسعة جياد .. يقودها فرسان مدربون وحوافرها ليست مزودة بالحدوة التقليدية .

هتف الدكتور (سيلرز) مبهورًا :

ـ هل أخبرتك الأرض بكل هذا ؟

أما (فريدى) فسأله فى لهفة :

ـ من أى اتجاه تأتى الجياد ؟

أجابه (باسل) مشيرًا بيده :

ـ من الغرب .

لم يكد يتم عبارته ، حتى ظهرت الجياد السبعة ، من خلف جبل بعيد ، وعلى متنها فرسان من نوع عجيب ..

من الهنود الحمر ..

وعندما انطلقت صيحاتهم القتالية ، تراجع الدكتور (سيلرز) فى ارتياع ، وهو يهتف :

ـ ما هذا ؟! جزء من البرنامج السياحى ؟!

بدا التوتر على وجـه (باسـل) ، فى حين راح (فريدى) يلتقط الصور فى لهفة ، وهو يقول فى انفعال :

ـ رائع .. رائع .. إنه مشهد نادر بالفعل .. لم أكن أعلم أنهم يصنعون البرامج السياحية بهذه الروعة .

ولكن (باسل) كان له رأى آخر ..

فهـؤلاء الهنـود الحمـر كـانوا ينطلقـون نحـوهم فـى براعـة مدهشة ، والصرامة المرتسمة علـى ملامحهم مـع الريش الـذى يزين رءوسهم ، والنقوش الكثيفـة علـى صدورهم ، كلهـا كـانت تعنى أنهم جادون ..

جادون للغاية ..

لم يكد يتم عبارته ، حتى ظهرت الجياد السبعة ، من خلف جبل بعيد ، وعلى متنها فرسان من نوع عجيب ..

وبالفعل ، بدأ الهنود يطلقون سهامهم ورماحهم نحو (باسل) ورفيقيه ، فصرخ الدكتور (سيلرز) :

ـ ربّاه !! إنهم يهاجموننا .

وعندما اتغرز رمح قوى على مسافة متر واحد من (فريدى) ، أدرك الثّلاثة أنهم يواجهون مصيرًا واحدًا لا غير .

القتل .

★ ★ ★

جذب (باسل) الدكتور (سيلرز) من يده فى قوة ، وهو يصرخ :

ـ اركض يا (فريدى) .. اركض بكل قوتك .

لم يكن (فريدى) بحاجة إلى هذا الهتاف فعليًا ، فقد انطلق يعدو بكل قوته بالفعل ، فور إدراكه أن الهجوم الهندى حقيقى ، ولكن الجياد القوية كانت تقترب من الثلاثة بسرعة مدهشة ، وليس هناك ما يمنع الهنود الحمر من إطلاق سهامهم عليهم ، من هذه المسافة القصيرة ، وإصابتهم بمنتهى الدقة ، و ...

وفجأة دوى صوت الرصاصات فى المكان ..

وسقط هندى أحمر ، ثم ثان ..

فثالث ..

وتوقف (باسل) ورفيقا فى توتر بالغ ، وقد حوصروا بالسهام الهندية والرصاصات ، ولكن الهنود تراجعوا بسرعة ، وكأنهم أدركوا أن الجانب الآخر صار أكثر قوة ، وابتعدوا وهم

يطلقون نفس الصرخات القتالية ، بعد أن حملوا قتلاهم ..

وعاد (فريدى) يلتقط الصور فى لهفة ، وهو يهتف :

ـ نجونا .. نجونا .

ولم يجبه (باسل) أو الدكتور (سيلرز) ، فقد تركز بصرهما على ثلاثة من رعاة الأبقار الأمريكيين ، اقتربوا على متون جيادهم ، وهم يمسكون مسدساتهم ، وأحدهم يحمل بندقيته .

وغمغم الدكتور (سيلرز) فى عصبية :

ـ قل لى يا (باسل) : هل اشتركنا سهوًا فى أحد أفلام رعاة الأبقار ؟!

لم يجبه (باسل) ، الذى راح عقله يعمل فى سرعة وتوتر ، محاولاً التوصل إلى تفسير منطقى لما يحدث ، فى حين فغر (فريدى) فاه ، عندما وقع بصره على رعاة الأبقار الثلاثة ، وهتف بدوره :

ـ ما هذا بالضبط ؟! برنامج سياحى آخر ؟

جاوبه صمت ثقيل ، والعيون تحدق فى رعاة الأبقار الثلاثة الذين اقتربوا كثيرًا ، قبل أن يتوقفوا، ويسأل أحدهم فى خشونة:

ـ ماذا تفعلون هنا ؟ من أنتم ؟ وما هذه الثياب الغريبة التى ترتدونها ؟ ثم ما هذا الشىء ؟

ألقى سؤاله الأخير ، وهو يشير إلى السيارة ، فقال (باسل) فى توتر :

ـ لا تقل لى إنك لم تر سيارة من قبل .

هتف آخر فى دهشة :

ـ لم ير ماذا ؟!

انعقد حاجبا الدكتور (سيلرز) فى شدّة ، وهـو يعدل منظـاره الطبى ، قائلاً :

ـ مهلاً أيها السادة .. أنا الدكتور (أرنست سيلرز) وأنـا فى طريقى لحضور مؤتمر صحفى عالمى ، وأرجو أن تعاونونى على الوصول فى موعدى .

تبـادل رعـاة الأبقـار الثلاثة نظرة دهشـة ، ثم قال أحدهم فـى صراحة ، وهو يعيد مسدسه إلى جرابه :

ـ دعونا نذهب بهم إلى مستر (إدواردز) ، فربما أمكنه فهم حديثهم العجيب هذا .

ثم التقط حبلاً طويلاً ، وراح يديره فى الهواء ، ليصنـع منـه أشرطة كبيرة ، فهتف (باسل) :

ـ لا تحاول هذا .

ولكن الرجل ألقى أشرطته على الدكتور (سيلرز) ، فأحـاط بها ذراعيه وصدره ، وجذبه فى خشونة ، فصاح (باسل) :

ـ قلت لك لا تحاول هذا .

وقفز يلتقط طرف الحبل ، ثم جذبه بكل قوته ، فـانتزع الرجل من فوق جواده ، وأسقطه أرضًا ، وسط دهشة زميليه ، فصـرخ الرجل فى غضب ، وهو ينتزع مسدسه من غمده :

ـ كيف جرؤت أيها الـ ...

قاطعه (باسل) بضربة قوية على معصمه ، أطاحت بمسدسه ، ثم عاجله بلكمة كالقنبلة ، وهو يقول :

ـ لقد حذرتك .

وارتفع صوت (فريدى) يهتف :

ـ احترس يا (باسل) .

استدار (باسل) ليواجه ما حذره منه (فريدى) ولمح طـرف مسدس ، و ..

وهوت ضربة عنيفة علـى مؤخرة عنقـه ، فمـادت بـه الأرض وترنح ، وسقط ..

سقط فاقد الوعى ، وسط رعاة الأبقار الثلاثة ، وأظلمت الدنيـا من حوله ..

« إنكم تثيرون دهشتى بالفعل أيها السادة » .

تسللت تلك العبارة إلى أذنى (باسل) ، وهو يسـتعيد وعيـه ، وشعر بصداع رهيب يكتنـف رأسـه ، ظـل مسترخيًا فـى رقـاده ، وسمع صاحب العبارة يستطرد :

ـ كل شىء فيكم يثيـر حيـرتنا وقلقنـا ، فذلـك الشـىء الـذى تطلقون عليه اسم (السيارة) لم نر مثله قط ، وكـل مـا بداخلـه عجيب غريب .. وحتـى الثيـاب التـى ترتدونهـا ، مصنوعـة مـن أقمشة غير مألوفة ، وناعمة إلى حد مدهش .

فتح (باسل) عينيه .. والدهشة تملأ نفسه ، وحدّق فى حيرة فى المكان الذى يرقد داخله .

كانت قاعة تشبه إلى حد كبير ، ذلك الذى يراه فى أفلام الغرب القديمة ، التى تستعرض حياة رعاة الأبقار ..

جدران خشبية ، ومدفأة كبيرة ، وبنادق معلقة على الجدران ، وفراء حيوانات ، وموائد ضخمة ثقيلة ، وأربعة من رعاة الأبقار بينهم رجل ضخم الجثة ، أشيب الشعر يتحدث إلى الدكتور (سيلرز) و (فريدى) ويتابع :

ـ حتى قصتكم ، والألفاظ التى تستخدمونها تثير حيرتنا ، فلسنا ندرى ماذا تقصدون بالمؤتمر الصحفى والأمصال ، وهذه المصطلحات العجيبة التى لم نسمع مثلها من قبل قط .

قال (فريدى) فى توتر :

ـ كيف هذا يا رجل ؟ ألا تغادر مزرعتك هذه قط ؟! ألا تمتلك حتى جهاز تليفزيون ؟!

ارتفع حاجبا الرجل فى دهشة ، هاتفًا :

ـ جهاز ماذا ؟

اعتدل (باسل) جالسًا ، وهو يقول :

ـ تليفزيون يا رجل .. ذلك الصندوق الذى تتتابع الصور على شاشته الفضية .. ألم تسمع عنه قط ..

انتزع أحد رعاة الأبقار مسدسه ، وصوبه بسرعة إلى (باسل) الذى التفتت إليه عيون الجميع ، ولكن الأشيب قال فى حزم :

ـ اخفض مسدسك .. إنه أعزل .

انتبه (باسل) فى هذه اللحظة فقط ، إلى أنه يرتدى ثوب رعاة أبقار خشنًا بدلاً من ثوبه الوطنى ، ويبدو أن الأشيب لاحظ هذا ، فقال فى غلظة :

ـ لقد أعرناك أحد ثيابنا ، حتى يتم إصلاح ثوبك ، فقد تمزق جزء منه وانسخ الباقى مع سقوطك أرضًا ..

أما الدكتور (سيلرز) ، فقد هتف مبهورًا :

ـ هل سمعت هذا يا (باسل) ؟ يبدو أن هؤلاء القوم منعزلون للغاية .. إنهم لم يسمعوا قط عن السيارة ، أو التليفزيون .. بل إن آلة التصوير التى يحملها (فريدى) أدهشتهم للغاية !

شعر (باسل) بدهشة حقيقية ، وهو يقول :

ـ إلى هذا الحد !

وهز (فريدى) رأسه فى حيرة ، وهو يضحك فى ارتباك قائلاً :

ـ هؤلاء أعجب قوم رأيتهم فى حياتى يا (باسل) .

أجابه الأشيب الضخم فى حدة :

ـ بل نحن قوم طبيعيون يـا هذا .. أنتم الذين ينبغى وصفكم بالعجب والغرابة ، فأنا (إدواردز) .. صاحب أكبر مزرعة فى المنطقة ، وهؤلاء أبنائى ، والجميع يعرفوننا.. الطبيب والمأمور، وكل سكان البلدة ، أما أنتم فمن يعرفكم ؟

قال الدكتور (سيلرز) :

ـ إذن فهنـاك بلدة ، وفيها طبيب ومأمور .. عظيم .. دعونا نذهب إليها إذن ، وسنتصل هاتفيًا ، لنبلغ مستر (ويست) أننا ضللنا طريقنا ، وهو سيرسل من يلتقطنا .

تبادل الرجال نظرة دهشة أخرى ، قبل أن يسأل (إدواردز) فى حيرة :

ـ وما هذا الهاتف ؟!

هتف (فريدى) :

ـ هل تجهلون الهاتف أيضًا ؟!

قفزت فجأة فكرة عجيبة إلى رأس (باسل) ، فقال بسرعة :

ـ مهلاً يـا سـادة .. يبدو أننـا ننتمى إلى مجتمعين مختلفين تمامًا .

سأله الدكتور (سيلرز) :

ـ ماذا تقصد يا (باسل) ؟

أجابه (باسل) فى انفعال واضح :

ـ حـاول أن تنظـر إلى الأمر من زاوية جديدة ، وستفهم ما أعنيه يا دكتـور (سـيلرز) ، ولـكن دعنى ألق أولاً سـؤالاً على مسـتر (إدواردز) .. قل لى يا مستر (إدواردز) .. فى أى عام نحن ؟

بدت الدهشة على وجه الرجل ، وهو يجيب :

ـ فى عام ١٧٨٥م بالطبع .

وكان الجواب مفاجأة ..

مفاجأة مذهلة .

★ ★ ★

٣ ـ الماضى المجهول ..

لثوان ، ران على المكان صمت رهيب ، وارتسم ذهول بلا حدود على وجهى (فريدى) والدكتور (سيلرز) ، قبل أن يهتف الأخير فى انزعاج شديد :

ـ ماذا تقول يا رجل ؟ لسنا بالتأكيد فى عام ١٧٨٥م .. إننا فى منتصف تسعينات القرن العشرين ، ولن يمكنك إقناعى أبدًا بـ .....

أوقفه ذلك الانفعال العجيب ، الذى ارتسم على وجوه (إدواردز) وأبنائه ، وهتاف أحدهم الذاهل :

ـ تسعينات ماذا ؟!

اتسعت عينا الدكتور (سيلرز) فى هلع ، وأدار بصره فى كل ما يحيط به فى ذعر ، فى حين ردّد (فريدى) فى ذهول :

ـ عبر الزمن .. لقد انتقلنا إذن عبر الزمن .. ربّاه !! هذا ما يحدث فى أفلام الخيال العلمى .. لقد نقلتنا كرة اللهب العجيبة إلى الماضى لأكثر من قرنين من الزمان .

هتف الدكتور (سيلرز) :

ـ هذا يفسر كل شىء إذن .. الصدمة واختفاء المنزل ، وكل ما يحيط بنا .. حتى دهشة هؤلاء السادة .

تبادل مستر (إدواردز) نظرة حائرة مع أولاده ، قبل أن يقول :

ـ معذرة ، ولكننا لا نفهم شيئًا مما تقولون .

أمسك الدكتور (سيلرز) كتفيه فى انفعال ، وهو يقول :

ـ هذا أمر طبيعى يا رجل .. أنت لا تفهم حديثنا لأنك تسبقنا بأكثر من مائتى عام .. لقد عاد بنا الزمن إلى الخلف فى واقعة تعدّ الأولى من نوعها .. لقد تحقق ما تنبأ به (أينشتين) ، عندما ذكر فى نظريته أن الزمن نسبى ، وأنه من الممكن أن يسير فيه المرء إلى الأمام أو الخلف، إذا ما وجد الطاقة المناسبة لهذا .

غمغم (إدواردز) فى حيرة أشد :

ـ ومن (أينشتين) هذا ؟

أطلق الدكتور (سيلرز) ضحكة انفعالية قصيرة ، قبل أن يقول :

ـ (أينشتين) يا رجل .. (ألبرت أينشتين) .. ذلك العالم الفيزيقى الألمانى ، الذى وضع نظرية النسبية ، والذى مات عام ١٩٥٥م

فغر الرجل فاه فى ذهول ، قبل أن يهتف فى عصبية :

ـ كيف مات فى عام ١٩٥٥م وما زلنا فى عام ١٧٨٥م ؟!

مطّ الدكتور (سيلرز) شفتيه ، قبل أن يقول فى مرح :

ـ إنها مسألة عويصة ، يطول شرحها يا رجل ، ولكننى أعدك أن أبذل قصارى جهدى لتفسيرها لك ، قبل أن نعود إلى زمننا ، و ....

امتقع وجهه بغتة ، واتسعت عيناه فى هلع ، وهو يستطرد :

- ربّاه ! ولكن كيف نعود إلى زمننا ؟

عاد ذلك الصمت الرهيب يخيم على المكان ، وتبادل (باسل) و (فريدى) والدكتور (سيلرز) نظرة متوترة ، قبل أن يقول (باسل) :

- نعم أيها السادة .. هذا هو السؤال ..

وبقى قوله معلقًا فى فضاء القاعة العتيقة بلا تعليق .. وبلا جواب ..

* * *

هبط الليل على المزرعة القديمة ، فى تلك البقعة المقفرة من الغرب ، واستند (فريدى) بظهره إلى قائم خشبى ، عند حظيرة الخيول ، وهو يردّد فى مرارة :

- ولكن هذا مستحيل ! مستحيل !

سأله (باسل) فى خفوت :

- ماذا بك ؟

أجابه (فريدى) فى حدّة ، وهو يلوح بآلة التصوير :

- لا يمكننى تصديق هذا .. لا يمكننى أن أهضم أبدًا أننا غادرنا زمننا إلى غير عودة .. هذا يبدو طريفًا ومثيرًا فى أفلام وروايات الخيال العلمى ، ولكنه مفزع للغاية ، عندما يتحوّل إلى واقع .. كيف يمكنك أن تتصوّر أنك ستفارق الأهل والأقارب والزملاء والأصدقاء إلى الأبد ؟! كيف تستوعب فكرة البقاء فى عصر لا تنتمى إليه ، ولا ينتمى إليك .. عصر يفتقر إلى كل

ما اعتدت وجوده من حولك .. لا كهرباء أو مياه نقية ، أو سيارات ، أو أجهزة تليفزيون ، أو راديو .. بل ولا حتى ساعة تعرف بها الوقت ؟

وزفر فى عصبية ، قبل أن يضيف :

- هذا لو أنه هناك قيمة للوقت .

عقد (باسل) حاجبيه ، وهو يقول :

- الواقع أننى لا أستطيع استيعاب الفكرة بأكملها يا (فريدى) ، فكيف يمكن لشخص ما أن يسافر عبر الزمن ، ويصل إلى زمن يسبق مولده ؟! ما الذى يمكن أن يحدث لو أن هذا الشخص أساء إلى وجوده بتصرف ما ؟!

هل يموت قبل أن يولد ؟! كلا يا صديقى .. لست أهضم هذه الفكرة أبدًا .

تنهد (فريدى) ولوح بكفه قائلاً :

- الأكثر إثارة للفزع هو أنها لم تعد مجرّد فكرة يا (باسل) .. لقد صارت واقعًا .. أصبحت حلمًا يتمنى المرء أن يستيقظ منه .. بل كابوسًا .. أبشع كابوس عشته فى حياتى يا (باسل) .

لم يعلق (باسل) على عبارته هذه ، وهو يدير عينيه فيما حوله فى بطء متوتّر .

كان هناك شئ لا يروق له ، فى الأمر برمته ..

صحيح أن (إدواردز) وأبناءه تركوهم يتحركون ويجولون فى حرية ، داخل حدود المزرعة ، إلا أن شيئًا ما فى أعماقه يشعره كأنه تحت مراقبة شديدة ..

مراقبة خفية ، يعجز عن تحديد موقعها ، وإن رصدتها أعماقه فى شدة ..

وفى شىء من التوتر ، سأله (فريدى) :

ـ أين الدكتور (سيلرز) ؟

أشار (باسل) بيده ، قائلاً :

ـ يتحاور مع (إدواردز) فى الداخل ، ويحاول إقناعه بفكرة الانتقال عبر الزمن ..

هزّ (فريدى) كتفيه ، وكأنما الأمر لا يعنيه ، ونهض قائلاً :

ـ دعه يحاول .. أنا سأقوم بجولة فى المكان ، فربما ساعدنى هذا على التغلب على ذلك الملل الرهيب ، الذى يملأ نفسى .

سأله (باسل) مبتسمًا :

ـ هل ستلتقط بعض الصور ؟

ابتسم (فريدى) فى أسى ، وهو يقول :

ـ وما الفائدة ؟! لن يرى الفيلم النور ، فى زمن يسبق اختراع آلة التصوير نفسها بقرن كامل تقريبًا .

قالها وسار يائسًا حزينًا ، فتابعه (باسل) ببصره فى أسف ، قبل أن يتمتم :

ـ من يدرى يا (فريدى) ؟ ربما كانت الأمور تخفى أكثر مما تظهر .

ثم اتجه إلى المنزل الكبير ، ليتابع حوار الدكتور (سيلرز) مع (إدواردز) ..

أما (فريدى) ، فقد سار حول المزرعة فى ضجر وملل ، وراح يركل الحصى والأحجار الصغيرة فى سخط ، وهو يقول لنفسه :

ـ ها هى ذى نهايتك يا (فريدى) .. كنت تحلم بالفوز بجائزة (بوليتزر) .

أعظم جوائز عالم الصحافة ، فإذا بك تجد نفسك فى زمن آخر لا يعرف الصحافة نفسها .

زفر مرّة أخرى فى مرارة ، وواصل طريقه ، حتى بلغ بناء خشبيًا صغيرًا ، حمل بابه قفلاً معدنيًا كبيرًا ، جعله يبتسم فى سخرية مريرة ، قائلاً :

ـ ترى ما الذى يوجد فى هذا العصر ، ويستحق قفلاً كهذا لحمايته ؟! إننى لا أستخدم مثله فى الـ ..

بتر عبارته بغتة ، وهو يحدّق فى القفل ، ثم انحنى يفحصه فى اهتمام ، قبل أن يهتف :

ـ مدهش ؟! هذا يقلب الأمور كلها رأسًا على عقب .

ثم اعتدل وتلفت حوله فى انفعال ، وكأنما يتيقن من أن أحدًا لا يراقبه ، قبل أن يعود لفحص القفل ، ويخرج من جيبه مصباحًا يدويًا صغيرًا يضىء به القفل ، ويتمتم :

ـ نعم .. لقد كنت على حق .. إنه مصنوع من الصلب ، وهذا اسم الشركة على القاعدة وتاريخ الصنع ، و ..

تملكه انفعال جارف، فتألقت عيناه فى حيوية ، واعتدل يهتف:

ـ (باسل) .. (باسل) .. لن تصدق ما عثرت عليه .

وانطلق يعدو عائدًا إلى المنزل الكبير ، ولكنه لم يكد يقطع عدة أمتار ، حتى سمع صوتًا يهتف من خلفه :

ـ إلى أين ؟

استدار (فريدى) بسرعة إلى مصدر الصوت ، ورأى السهم المصوب إلى صدره ، فصرخ بكل قوته :

ـ النجدة يا (باسل) .. النجـ ..

ولكن السهم لم يمهله ..

لقد انطلق نحو الهدف ..

وبمنتهى الدقة ..

تنهد الدكتور (سيلرز) فى قوة ، وهو يواجه (إدواردز) ، قائلاً فى شىء من الضجر ..

واليأس ..

حسن .. إننى أستسلم .. لن يمكننى إقناعك بالنسبة الزمنية قط .. إنك تحتاج إلى قرن كامل من الزمان ، حتى يمكنك استيعاب هذا .

قال الرجل فى غضب :

ـ ماذا تعنى ؟ هل تتهمنى بالغباء ؟!

أجابه الدكتور (سيلرز) بسرعة :

ـ مطلقًا .. كل ما فى الأمر أن الفكرة أصعب من أن يستوعبها أى شخص عادى فى زمنى ، فما بالك بمزارع فى زمنك .

زمجر الرجل فى غضب مرة أخرى .

فتدخل (باسل) ، قائلاً :

ـ الدكتور (سيلرز) لا يقصد أى سوء .. إنه خلاف فلسفى فحسب .

قال الرجل فى دهشة مستنكرة :

ـ خلاف ماذا ؟

لوح الدكتور (سيلرز) بيده ، وقال :

ـ لا عليك .. لن يفهم أحدنا الآخر أبدًا .

عقد (إدواردز) حاجبيه الأشيبين الكثين فى غضب ، وتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ فلتكن من ذلك المستقبل المزعوم ، ونحن مما تطلق عليه اسم الماضى ، ولكن المهم أننى نجحت فى إنشاء مزرعة قوية ، وفى تربية ثلاثة رجال أشداء ، فما الذى فعلته أنت ؟

أجابه الدكتور (سيلرز) ، فى اعتزاز :

ـ أنا صنعت أول مصل مضاد لفيروس (الإيدز) .

قال (إدواردز) مستنكرًا :

ـ لماذا ؟! لا أحد يعرف هذا الشىء الذى تتحدث عنه يا رجل، ولا أحد يهتم به .

قال الدكتور (سيلرز) فى حدة :

ـ ربما كان هذا صحيحًا فى زمنك ، ولكن فى زمنى أنا ..

قاطعه (إدواردز) ساخرًا :

- وهل ستعود إلى زمنك هذا ؟

شحب وجه الدكتور (سيلرز) ، واحتبست الكلمات فى حلقه ، وزاغ بصره لحظة ، قبل أن يغمغم بصوت متحشرج :

- رباه ! كيف لم أنتبه إلى هذا ؟!

لم يكد يتم عبارته ، حتى ارتفعت صرخة (فريدى) ، وهو يستنجد بصديقه (باسل) ثم انقطعت بغتة بشهقة مكتومة ، فوثب (باسل) من مكانه ، واندفع خارجًا ، وهو يهتف :

- (فريدى) .

انطلق بأقصى سرعته نحو مصدر الصرخة ، واتسعت عيناه فى ارتياع ، عندما رأى (فريدى) ملقى أرضًا ، وقد انغرس سهم هندى طويل فى صدره ، وجحظت عيناه فى رعب .

وقبل أن يندفع (باسل) نحوه ، سمع أحد أبناء (إدواردز) يهتف به :

- استلق أرضًا يا فتى .. إنهم هنا .

ألقى (باسل) جسده أرضًا ، وهو يسأله :

- من هؤلاء ؟

أجاب الشاب وهو يزحف أرضًا :

- الهنود .. الهنود الحمر .. لقد باغتونا بالهجوم .

زحف (باسل) فى سرعة ، حتى بلغ (فريدى) ، وقال له فى توتر :

- (فريدى) .. ماذا أصابك ؟

انطلق بأقصى سرعته نحو مصدر الصرخة ، واتسعت عيناه فى ارتياع ، عندما رأى (فريدى) ملقى أرضًا ، وقد انغرس سهم هندى طويل فى صدره ..

كان المصور يرتجف فى شدة ، ولكن عينيه الجاحظتين التفتتا نحو (باسل) ، قبل أن يتمتم :

ـ قفل يا (باسل) .. قفل من الصلب .. عثرت على قفل من الصلب .

اتعقد حاجبا (باسل) وهو يهتف :

ـ الصلب ؟!

أطلق (فريدى) شهقة عنيفة ، انتفض معها جسده كله ، ثم تراخى جثة هامدة ، فاعتصر الألم قلب (باسل) ، وهو يغمغم :

ـ يا للمسكين !

وتلا بعض الآيات القرآنية ، وهو يغلق عينيه فى رفق ، قبل أن يصل الدكتور (سيلرز) ، ويهتف فزعًا :

ـ هل .. هل مات ؟

أجابه (باسل) فى أسى :

ـ نعم .. لقد قتلوه بلا رحمة ، ومات قبل أن يحقق أحلامه .

ارتجف الدكتور (سيلرز) ، وهو يردد :

ـ نعم .. قبل أن يحقق أحلامه .

ثم أمسك يد (باسل) فى قوة ، مستطردًا :

ـ اسمع يا (باسل) .. أريد منك خدمة .

سأله (باسل) فى توتر :

ـ ماذا تريد يا دكتور (سيلرز) ؟ أنا رهن إشارتك .

أجابه الرجل ، وهو يرتجف :

ـ أريد منك أن تبذل قصارى جهدك، للبحث عن شخص يمكنه استيعاب كيفية صنع وتركيب المصل المضاد لفيروس (الإيدز) فى هذا العصر .. ما دمنا قد تسللنا من عصرنا وعدنا إلى الماضى ، فلا بد أن نستغل هذه الفرصة النادرة لنحارب فيروس (الإيدز) قبل أن يبدأ هجومه الشرس .. هل تدرك مدى روعة هذا يا (باسل) .. سنودع التفاصيل لدى شخص مؤتمن فى هذا العصر ، وعندما يظهر فيروس (الإيدز) فى ثمانينيات القرن العشرين ، ستكون تركيبة المصل المضاد له جاهزة ، هذه هى الحكمة فى عودتنا إلى الماضى يا (باسل) .

عقد (باسل) حاجبيه ، وهو يقول :

ـ كلا يا دكتور (سيلرز) .. احتفظ لنفسك بهذه التفاصيل .

انتزع الرجل ساعته ، وقال فى توتر :

ـ مستحيل ! إنها فرصتى الوحيدة لتحقيق ما كنت أحلم به ، قبل أن تنتهى حياتى فى هذا الزمن ، بسهم هندى آخر .

وفى سرعة وخفة ، أزاح المظروف الخلفى للساعة والتقط من أسفله (ميكروفيلم) دقيقًا ، ناوله (باسل) مستطردًا :

ـ خذ .. هذه هى كل المعادلات والتفاصيل ، والشرح الكامل لتركيب وطريقة صنع المصل ، خذها وابحث عن الـ .....

قاطعه (باسل) فى عصبية شديدة :

ـ ماذا فعلت يا رجل ؟ لقد أعطيتهم ما يريدون .

تراجع الدكتور (سيلرز) فى دهشة ، وهو يقول :

ـ أعطيتهم ماذا ؟

أجابه (باسل) فى انفعال :

ـ ألم تفهم الأمر بعد يا رجل ؟ إنها خدعة .. كل ما حولنا مجرّد خدعة كبيرة .. أعدوها ونفذوها بمنتهى الدقة ، حتى يمكنهم أن يحصلوا على هذه التفاصيل الدقيقة .

شحب وجه الدكتور (سيلرز) ، وهو يهتف :

ـ خدعة ؟! ولكن هذا مستحيل يا (باسل) ! كل شىء حولنا يؤكد أننا قفزنا إلى الماضى .

أجاب (باسل) :

ـ ألم أقل لك : إنها خدعة متقنة للغاية ؟!

لقد صنعوا كل شىء بحرفية شديدة .. المكان والثياب والأدوات ، وحتى أدوات الخياطة وأطباق المائدة .. كل شىء تمت دراسته بدقة مدهشة ، حتى نقتنع تمامًا بأننا عبرنا الزمن إلى القرن الثامن عشر .. كل شىء فيما عدا ذلك القفل ، الذى ذكره (فريدى) قبل أن يموت .. القفل المصنوع من الصلب .

قال (إدواردز) فى عصبية :

ـ وما المشكلة فى وجود قفل من الصلب ؟

التفت إليه (باسل) مجيبًا فى صرامة :

ـ المشكلة أن الصلب ليس معدنًا فى حد ذاته ، ولكنه سبيكة صناعية لم يتم إنتاجها إلا مع بدايات العصر الصناعى ، عندما

صنعوا الأفران الضخمة ، والسبائك الحديثة ، وليس فى عام ١٧٨٥م أبدًا .

احتقن وجه (إدواردز) فى شدّة ، ثم استدار إلى أحد أبنائه وهوى على وجهه بصفعة قوية ، وهو يقول :

ـ أيها الغبى .. كان ينبغى أن تنتبه إلى هذا .

تراجع الدكتور (سيلرز) مصعوقًا ، وهو يهتف :

ـ إذن فكل هذا ..

قاطعه صوت ساخر ، يقول :

ـ نعم يا دكتور (سيلرز) .. كل هذا مجرّد خدعة .. أذكى خدعة فى التاريخ .

استدار الجميع إلى مصدر الصوت .

وأطلق الدكتور (سيلرز) شهقة عنيفة ، فقد كان ذلك الواقف أمامه هو آخر شخص يتوقع رؤيته فى مثل هذا المكان .

آخر شخص على الإطلاق .

★ ★ ★

٤ ـ المفـاجأة ..

على الرغم من الدهشة العارمة التى أصابت الدكتور (سيلرز) وهو يحدق فى وجه (دونالد ويست) ، ظل (باسل) هادئًا للغاية ، وكأنه كان يتوقع هذا ، وهو يقول :

ـ أهنئك يا مستر (ويست) .. الخدعة كانت متقنة إلى حد كبير ، ولكن الكمال لله (سبحانه وتعالى) وحده .. الشىء الوحيد الذى يملأ نفسى غضبًا ، هو أنك تسببت فى مقتل (فريدى) المسكين .

هزّ (ويست) كتفيه فى لا مبالاة ، وهو يقول :

ـ لقد دسّ أنفه فيما لا يعنيه .

فنال ما لا يرضيه .

وهنا هتف الدكتور (سيلرز) مبهورًا :

ـ ولكن كيف ؟! كيف فعلت كل هذا ؟ لقد شاهدنا كرة اللهب التى انقضت علينا ، وشاهدنا آثار الاحتراق التى تركتها على السيارة ، وشعرنا بالصدمة ، و ..

قاطعه (باسل) فى حزم :

ـ لا تجعل كل هذا يبهرك يا دكتور (سيلرز) ، فكرة اللهب لم تكن سوى صورة هولوجرامية مجسمة ذات ثلاثة أبعاد ، يتم صنعها باستخدام أشعة الليزر، المنعكسة على أسطوانة خاصة ، بحيث تبدو للناظر حقيقية ، فى حين أنها مجرّد وهم علمى

مدروس ، وآثار الاحتراق التى رأيتها على مقدمة السيارة ، تم صنعها باستخدام مشعل عادى ، أما تلك الصدمة التى أصابتنا داخل السيارة فهى أبسط جزء من الخطة ، إذ يكفى توصيل أسلاك كهربية إلى المقاعد ، ثم تشغيل التيار بجهاز تحكم عن بعد (ريموت كنترول) ، وبعد أن نفقد وعينا من أثر الصدمة ، تحملنا شاحنة إلى هنا ، حيث تم ترتيب الأمر وإعداده بمنتهى الدقة ، لإقناعنا بفكرة الانتقال عبر الزمن هذه .

تألقت عينا (ويست) ، وهو يهتف :

ـ مدهش .. عقليتك علمية ومرتبة للغاية .

أما الدكتور (سيلرز) ، فقد بدا مصدومًا ، وهو يقول :

ـ ولكن لماذا ؟! لماذا كل هذا ؟!

أجابه (باسل) :

ـ حتى يمكنهم الانفراد بالسر يا دكتور (سيلرز) .. سر المصل الجديد .

قال الرجل فى دهشة :

ـ ولكنهم أنفقوا الملايين حتمًا ، لتنفيذ هذه الخدعة .

أجابه (ويست) هذه المرة ، وهو يضع كفيه فى جيبى معطفه ، ويبتسم فى ظفر .

الملايين لا تساوى شيئًا ، أمام المليارات التى ستتحقق لمن يفوز بالسر .

قال الدكتور (سيلرز) فى حنق :

ـ ولكنك ملياردير بالفعل يا (ويست) .

هزَّ (ويست) كتفيه ، وقال :

ـ وماذا يضيرنى لو حصلت على المزيد .

قلب الدكتور (سـيلرز) شفتيه فى امتعاض وازدراء ، وهو يقول :

ـ يا للحقارة !

قهقه (ويست) ضاحكًا فى جذل ، وكأنما امتدحه (سيلرز) ، فسأله (باسل) فى غضب ساخط :

ـ قل لى يا (ويست) : لماذا أقحمتنى فى هذه العملية ؟

أجابه الرجل فى زهو :

ـ للسبب الذى أخبرتك به فى البداية يا (باسل) .. كنت أحتاج إلى شخص يمكن أن يثق به (سيلرز) .. شخص معروف ارتبط اسمه فى الآونة الأخيرة بالعلم والخيال .. شخص نظيف كما يقولون فى عالمنا .

ثم أطلق ضحكة ساخرة ، قبل أن يضيف :

ـ كما أن وجود شخص ذكى مثلك ، يضفى على اللعبة متعة أكبر بالتأكيد .

قال (باسل) فى غضب :

ـ يا للحقارة !

عاد الملياردير الأمريكى يقهقه ضاحكًا فى جذل ، قبل أن يشير إلى الدكتور (سيلرز) ، قائلاً :

ـ والآن يا عزيزى الدكتور (سيلرز) .. أعطنى هذا (الميكروفيلم) الظريف ، الذى يحوى كل ما نسعى إليه .

بدت المرارة واضحة على وجه الدكتور (سيلرز) ، وهو يتطلع إلى (الميكروفيلم) المستقر فى راحة يده ، قبل أن يمد هذه اليد نحو (ويست) ، و ..

وفجأة ، وثب (باسل) يختطف الميكروفيلم ، وهو يهتف :

ـ لن تحصل عليه أبدًا يا (ويست) .

صرخ (رونالد ويست) :

ـ امنعوه .. استعيدوا (الميكروفيلم) .

انقض (إدواردز) وأبناؤه الثلاثة على (باسل) .. ولكن هذا الأخير هوى على فك أقربهم إليه بلكمة ساحقة ، ووثب يركل الثانى فى معدته ، قبل أن يعدو نحو اسطبل الخيول ، فصرخ (ويست) :

ـ أطلقوا عليه النار .. اقتلوه قبل أن يفر مع (الميكروفيلم) .

انطلقت الرصاصات خلف (باسل) ، ولكنه قفز داخل الاسطبل ، وهو يقول فى شىء من السخرية :

ـ ليس من الضرورى أن تربح دائمًا يا (ويست) ، فحتى العمالقة يخسرون معاركهم أحيانًا .

كانت الجياد ثائرة ، مع دوى الرصاصات ، ولكن (باسل) انتقى جوادًا أبيض قوى الصدر نحيل البطن ، سميك العنق ، كبير الذيل ، ووثب على متنه ، هاتفًا :

ـ هيا يا صـديقى .. دعنـا نثبت لهم أن العـرب هم أعظم الفرسان .

ولكز الجـواد بكعبيـه ، وهـو يجـذب عنـانه ، فأطلق الجـواد صهيلاً قويًا ، عـلا فـوق دوى الرصاصـات ، وضـرب الهـواء بقائمتيه ، قبل أن ينطلق عبر باب الاسطبل ، وقد انحنى (باسل) فوقه ، حتى التصق بظهره ، وهو يرتدى ثياب رعاة الأبقار ، التى أبدلوها بثوبه فى أثناء غيبوبته .

وفى ذعر ، هتف (رونالد) :

ـ لا تطلقوا النار على الجواد .. إنه يساوى ثروة .

تراجع الرجل فى تردّد ، وخشى كل منهم أن يطلق النـار على (باسل) ، فتصيب رصاصته الجواد ، فى حين انطلق (باسل) بكل ثقة ، متجهًا نحـو أسوار المزرعـة ، وعندمـا بلغهـا صـاح بالجواد :

ـ حانت لحظة الزهو يا صديقى .

وانصاع الجواد لفارسه علـى الفـور ، فوثب متخطيًا الأسـوار وثبة رشيقة رائعة جعلت (إدواردز) يهتف بلا وعى :

ـ يا له من فارس !

ثم انتبه إلى وجود (ويست) ، فاستدرك بسرعة :

ـ ولكنه لن يفوق فرساتنا .

التقط (ويست) الكلمـة مـن بين شفتيه ، وصـاح فـى رعـاة الأبقار الثلاثة :

ـ أسرعوا خلفه .. أريد هذا (الميكروفيلم) بأى ثمـن .. هل تفهمون ؟ بأى ثمن .

وثب الثلاثة على صهوة جيادهم ، وانطلقوا خلف (باسل) .

وكانت مطاردة عجيبة ، فى قلب الليل .

ومن حسن الحـظ أن القمر كـان بـدرًا فـى تلـك الليلـة ، ولكـن الصحراء بدت شاسعة متشابهة أمام عينى (باسل) ، الذى قـال محدثًا نفسه :

– أين تذهب يا (باسل) .. كل الأماكن تبدو متماثلة ، ولا يوجد طريق للخروج من هنا .

لم يكد يتم حديثه القصير مع نفسه ، حتى تناهى إلى مسامعه وقع حوافر الجياد ، فالتفت إلى الخلف ، ورأى رعاة الأبقار الثلاثة يقتربون منه ، فلكز بطن جواده مرة ثانية ، وهو يهتف :

– هيا يا صديقى .. ابتعد بنا عن هنا .

كانت أمامه ثلاثة دروب متشابهة ، فاختار أقربها إليه فى سرعة ، وانطلق عبره وخلفه رعاة الأبقار الثلاثة .

ودوت الرصاصات فى قلب الليل ، ولكن (باسل) أدرك على الفور أنها تنطلق لإرهابه فحسب ، وأن أيًا منهم لن يجرؤ على إطلاق النار مباشرة ، خوفًا على الجواد ، و ..

ولكن فجأة بدت له نهاية الدرب الذى اختاره وخفق قلبه فى عنف ..

لقد كان طريقه مسدودًا فى نهايته بصخرة ضخمة رأسية ، تمنعه من مواصلة الانطلاق ، والفرار من أعدائه .

وكان هؤلاء الأعداء يقتربون أكثر وأكثر .

وفى حسم ودون أن يتردد لحظة واحدة ، جذب (باسل) عنان جواده ، واستدار يواجه خصومه ، ثم هتف فى صلابة :

– الآن سنثبت لهم أننا أعظم الفرسان .

وانطلق بجواده فى مواجهة أعدائه ، الذين أصابتهم دهشة بالغة ، لم تلبث أن تحولت إلى ذهول تام ، عندما حدثت المواجهة .

وكان من الطبيعى أن يحدث هذا ، لأن ما فعله معهم (باسل) كان مذهلاً .

مذهلاً بحق .

★ ★ ★

دس (دونالد ويست) كفيه فى جيبى معطفه فى عصبية واضحة ، وهو ينفث غضبه مع أنفاسه فى وجه الدكتور (سيلرز) ، قائلاً :

– هل رأيت ما فعله (باسل) هذا ، عندما تأزمت الأمور .. لقد آثر السلامة ، وفر بنفسه ، تاركًا إياك خلفه .

ابتسم (سيلرز) فى سخرية ، وقال :

– هذا ما كنت أتمنى أن يفعله بالضبط.. لقد أنقذ (الميكروفيلم) ومنعك من الحصول عليه ، وهو يدرك أنك لن تخاطر بقتلى ، قبل أن تطمئن إلى وجود (الميكروفيلم) معك .

عقد (ويست) حاجبيه ، وهو يقول فى حنق :

– ألم يخش أن أجبرك على البوح بالسر .

هزّ (سيلرز) رأسه نفيًا ، قبل أن يقول :

– (باسل) ذكى كما لاحظت ، وسيدرك أنه لو كان بإمكانك إجبارى على هذا ، لما أنفقت كل هذه الملايين ، لتدبير خطة الزمن السخيفة هذه .

تصاعد هدير مروحة هليكوبتر ، و (دونالد ويست) يقول فى صرامة :

– ربما كان الموت نفسه لا يخيفك يا (سيلرز) ، ولكننى واثق من أن وسيلة الموت نفسها تصنع فارقًا كبيرًا .

بدا القلق يتسلل إلى نفس (سيلرز) ، مع ظهور الهليكوبتر واقترابها ، و (ويست) يتابع فى غضب وحشى :

ـ سأحملك إلى مكان مجهول يا (سيلرز) ، وهناك سأقتطع جزءًا من جسدك فى كل مرة ، وسأذيقك العذاب ألوانًا ، وأحرق أطرافك بالنـار ، حتى أحصـل على السـر .. (دونالد ويست) لا يخسر معركة قط .

شعر (سيلرز) بخوف حقيقى ، وهو يلوح بيده ، قائلاً :

ـ إنك تخيفنى فحسب .. لن تفعل هذا بحق .. إنـك لا تستطيع أن تتصرف كوحش حقيقى .

ابتسم (ويست) فى سخرية ، وهو يقول :

ـ هل تظن هذا حقًا ؟

توتر (إدواردز) ، قائلاً :

ـ مستر (ويست) .. لا يمكن للأمور أن تصل إلى هذا الحـد ، فلم نتـ .. فجأة .

ودون سابق إنذار ، وقبل أن يتم (إدواردز) عبارتـه ، استل (ويست) من جيب معطفه مسدسًا ، وأطلق النـار على رأس راعى البقر الكهل ، الذى جحظت عيناه فى ألم وذهول ، وامتزج الشيب فى رأسـه ببقع الدم قبل أن يهـوى جثة هامدة ، فصرخ (سيلرز) :

ـ لقد قتلته .. قتلت (إدواردز) دون أدنى تردد :

ـ أطلق (ويست) ضحكة مجنونة ، وهو يقول :

ـ هل صدقت الآن أننى أستطيع فعل أى شىء ممكن .

صاح (سيلرز) :

ـ أنت مجنون .. مجنون .

صوب (ويست) المسدس إليه ، هاتفًا :

ـ مجنون وقاتل يا .. (سيلرز) .. اسمعنى جيدًا .. لقد بلغت مدى لا يمكن التراجع بعده .. هيا .. سترحل معى فـى هـذه الهليكوبتر ، أو أطلق النار على رأسك بلا تردد ..

وأمام هذا التهديد الصريح ، لم يعد هنـاك مجال للاختيـار .. قط ..

* * *

من المؤكد أن رعاة الأبقـار الثلاثـة لـن ينسـوا ذلـك المشـهد ، حتى آخر يوم فـى أعمـارهم .. فقـد كـانوا يطـاردون (باسـل) ، ولكنهـم فوجئـوا بـه يستدير بجـواده ، ثـم ينقـض عليهـم ، وهـو يصرخ بكل ما فى أعماقه من قوة وإيمان :

ـ الله أكبر .

لم يكن أحدهم يفهم حرفًا واحدًا من العربيـة ، ولكـن الصيحـة زلزلت كيانهم ، وأرجفت قلوبهـم ، وبثت فـى نفوسـهم الرعـب ، فتراجعوا مذعورين فى حين اقتحم (باسل) جيادهم بجواده ، الذى أطلق صهيلاً قويًا بـدوره ، فـتراجعت الجيـاد الأخـرى ، وتضـاربت قوائمهـا فـى الهـواء ، واختلـط الحابل بالنـابل وسـقط اثنان من رعاة الأبقار من فوق صهوتى جواديهما . فى حين فقد

الثالث توازنه ، وتشبث بالسرج بكل قوته ، فجفل جواده ، وانطلق هائمًا فى قلب الصحراء .

أما (باسل) ، فلم يتوقف لحظة واحدة .

كان أعزل من السلاح وحيدًا ، ولكن إيمانه بخالقه (عز وجل) جعله أقوى من خصومه الثلاثة المسلحين .

وفى سعادة هتف (باسل) ، وهو يعدو بجواده عائدًا إلى المزرعة :

ـ حمدًا لله .. حمدًا لله .. كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذنه (سبحانه وتعالى) ..

أطبقت أصابعه على عنان الجواد ، وعلى (الميكروفيلم) فى قوة ، وواصل انطلاقه نحو المزرعة ، فى محاولة للحاق بالدكتور (سيلرز) ، قبل أن يجبره (ويست) على البوح بسر المصل .

ومن بعيد، لاحت له الهليكوبتر، تحت ضوء القمر، وقد استقرت وسط المزرعة و (ويست) يتجه إليها ، وهو يدفع (سيلرز) أمامه .

ولمح (سيلرز) الفارس القادم فهتف :

ـ (باسل) .. إنه (باسل) .

كان من العسير تمييز القادم ، الذى يرتدى زى رعاة الأبقار نفسه ، الذى يرتديه الباقون ، ولكن (ويست) أدرك بغريزته أن القادم هو (باسل) ، فدفع (سيلرز) أمامه فى عنف أكبر ، وهو يصيح بقائد الهليكوبتر :

ـ أسرع يا رجل .. اقلع فور ركوبنا .

شاهدهما (باسل) يدلفان إلى الهليكوبتر ، فحث جواده على الإسراع أكثر ، صائحًا :

ـ سيفلت المجرم منا يا صديقى .. أعلم أننى أطالبك بجهد إضافى ، ولكن أسرع ، وسأمنحك مكافأة كبيرة عندما ننتصر بإذن الله .

بدأت الهليكوبتر ترتفع بالفعل ، والجواد يعدو نحوها بسرعة مدهشة ، وكأنما أصبح التجاوب بينه وبين فارسه تامًا ، وعندما أصبحت الهليكوبتر على ارتفاع ثلاثة أمتار ، وصل إليها (باسل) بجواده ، فصاح بكل قوته :

ـ الآن يا صديقى الآن .

استجاب له الجواد على الفور ، فوثب وثبة رائعة ، أضاف إليها (باسل) قفزة أخرى ، جعلته يتعلق بالقائم السفلى للهليكوبتر قبل أن يهبط جواده أرضًا .

واختل توازن الهليكوبتر ، مع ذلك الثقل الإضافى ، فمالت على نحو بالغ الخطورة ، وصرخ (ويست) بالطيار :

ـ احترس يا رجل .. إنك تعرضنا للخطر .

لم يكد ينطقها ، حتى كان (باسل) يقفز داخل الهليكوبتر ، هاتفًا :

ـ لقد وصل الخطر بالفعل .

صوب إليه (ويست) مسدسه ، صارخًا :

- لا .. لا تقترب منى .

ولكن (باسل) أزاح المسدس بضربة مباشرة على معصم (ويست) ، ثم أعقب هذا بأن هوى على فكه بلكمة ساحقة ، قائلاً :

- ومن يرغب فى الاقتراب من مجرم مثلك ؟

تقجر الدم من أنف (ويست) ، وهو يصرخ :

- كيف .. كيف جرؤت على ..

أخرسته لكمة كالصاعقة من قبضة (باسل) ، فهوى على مقعده فاقد الوعى ، فى حين اندفع قائد الهليكوبتر يبحث عن مسدسه ، إلا أنه لم يكد يطبق أصابعه عليه ، حتى كانت فوهة مسدس (ويست) تلتصق بمؤخرة رأسه ، وسبابة (باسل) على زناده ، وهو يقول فى صرامة :

- لا تحاول .

ألقى الطيار مسدسه ، وهتف :

- لا تطلق النار .. أنا استسلم .. سأفعل كل ما تأمرنى به .

تنهد (باسل) فى ارتياح ، وهو يقول :

- فليكن يا رجل .. قدنا إلى أقرب مركز شرطة .

واسترخت أعصابه كلها .

★ ★ ★

انتهى الأمر كله فى ساعات معدودة ، فقد انهار رعاة الأبقار الثلاثة ، بعد مقتل والدهم ، واعترفوا بكل شىء بالتفصيل ، وتم

إلقاء القبض على (دونالد ويست) ، بتهمة التآمر والتحريض على قتل المصور (فريدى) ، واحتلت هذه الأنباء مانشيتات كل الصحف فى (أمريكا) .. وعلى رأسها صحف (ويست) نفسه ، أما (باسل) فلم يكد ينتهى من التحقيقات والاستجوابات ، التى قضى فيها وقتًا طويلاً ، حتى ربت على عنق الجواد الأبيض ، ووضع أمامه جعبة تمتلئ بقطع السكر ، وهو يبتسم ، قائلاً :

- انظر يا صديقى .. هأنذا أفى بوعدى .

هزّ الجواد رأسه فى قوة ، وأطلق صهيلاً متصلاً ، تردّد عبر المزرعة كلها ، و ..

وعبر الزمن ..

★ ★ ★

حلول اختبر معلوماتك

١ ـ المشترى .
٢ ـ الجعران .
٣ ـ الفاصوليا .
٤ ـ ابن آوى .
٥ ـ كليوباترا .
٦ ـ رذرفورد .
٧ ـ البحر الأحمر .
٨ ـ تنس الطاولة .
٩ ـ موسكو .
١٠ ـ صلاح الدين الأيوبى .
١١ ـ الرسم البيانى .
١٢ ـ ابن ماجد .
١٣ ـ الأقصر .
١٤ ـ الطماطم .
١٥ ـ سعد زغلول .
١٦ ـ المحيط الأطلنطى .
١٧ ـ طليطلة .
١٨ ـ النخـاع .
١٩ ـ فينيسيا .
٢٠ ـ ويليام شكسبير .

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

٧٢٥٩٩

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

فى هذا الكتاب

صفحة

أبيض وأسود (قصة قصيرة) ٥

اختبر معلوماتك ....

المرأة مشكلة ... صنعها الرجل (دراسة) ٢١

فاى .. سلسلة جديدة :

عملية (الأستاذ) .. الجزء الثالث والأخير ٣١

مذكرات طبيب ، فى صعيد (مصر) الجوّانى (خواطر) ١٢١

قصة العدد :

(عبر الزمن) ١٤١

عزيزى القارئ (١) ٢٠٠

عزيزى القارئ (٢) ٢٢٦

حلول اختبر معلوماتك ٢٥٥

مطابع
المؤسسة العربية الحديثة

الثمن فى مصر ٢٠٠ قرش
ومايعادله بالدولار الأمريكي
فى سائر الدول العربية والعالم